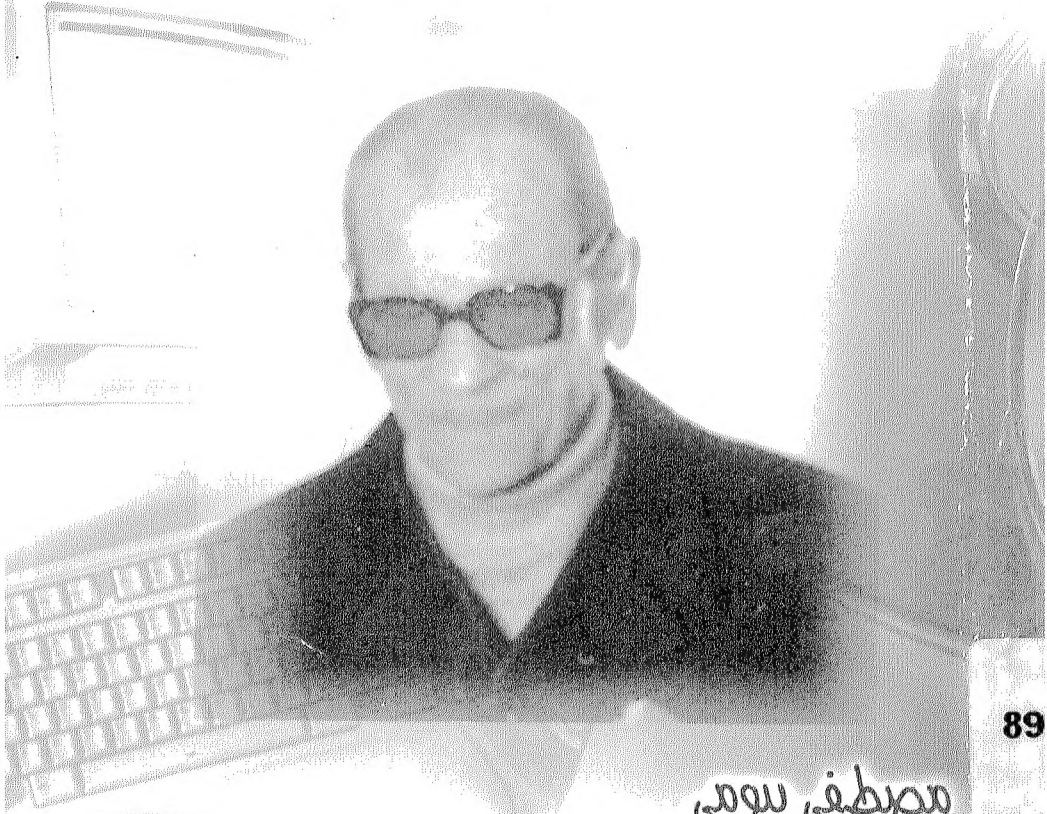


كتاب المستقبل (2)

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ



89

مصطفى بيومي

مركز دراسات المستقبل



أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ
"المرايا نموذجاً"

كتاب المستقبل ②

رئيس مجلس الإدارة
د. ماهر مصطفى كامل

مدير المركز
د. محمد عاطف كشك

مدير التحرير
مصطفى بيومي

الكتاب: أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ
"الرايا نموذجاً"

المؤلف: مصطفى بيومي

الناشر: مركز دراسات المستقبل - جامعة النجيا
دار الهدى للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: ٢٠٠١/٣١٢٢
التقديم الدولي: 977-5822-40-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر

المراسلات

جامعة النجيا - مركز دراسات المستقبل
ت/فاكس 086/345394

النجيا - 5 ميدان الساعة - ص ب 4 عمومي
ت 0123454568 - فاكس 086/346713



دار القيس للطباعة وفصل الألوان
ت ٥٢٤٣٣١٤ - ٣٦٨٥٦٢٨ - ٣٦٤٠٨٢٥٠

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ "المرايا نموذجاً"

مصطفى بيومي

مركز دراسات المستقبل - جامعة المنيا
دار المدى للنشر والتوزيع

كتاب المستقبل

تهدف هذه السلسلة إلى:

- رفع مستوى الوعي بالقضايا والتحديات المستقبلية والنهوض بمستوى الحوار حولها لدى مختلف القوى الاجتماعية.
 - استثارة الاهتمام المجتمعي الجاد بالمستقبل وقضاياها.
 - الإسهام في تكوين مكتبة علمية لدراسات المستقبل من خلال إبداعات علماء جامعة المنيا وأصدقاء المركز من المفكرين والعلماء المصريين.
- إن هدف الدراسات المستقبلية ليس فقط معرفة احتمالات واتجاهات التغير والاستعداد لها، وإنما أيضا التأثير فيها فى الاتجاهات المطلوبة.

مقدمة

د. ماهر مصطفى كامل

رئيس جامعة المنيا

فى سياق احتفاء جامعة المنيا بأسبوع شباب الجامعات الذى تستضيفه فى فبراير 2001، يقدم مركز دراسات وبحوث المستقبل هذا الكتيب عن "أستاذ الجامعة فى عالم نجيب محفوظ" من خلال رواية "المرايا" التى تبدى اهتماما كبيراً بشخصية الأستاذ الجامعى ودوره فى الحياة المصرية.

مكانة نجيب محفوظ معروفة ولا تحتاج إلى حديث طويل، وهو ابن من أبناء الجامعة المصرية حيث تخرج فى كلية الآداب بجامعة القاهرة "فؤاد الأول" سنة 1934، والذى لا شك فيه أن كاتباً فى مثل قيمته وقامته يستطيع أن يقدم شهادة مهمة عن التاريخ المصرى الذى تحتل فيه الجامعة مكاناً بالغ الأهمية.

ومن الكتيب الذى نقدم له يمكن استخلاص مجموعة من المفردات المهمة عن الجامعة وأساتذتها فى الواقع المصرى.

. أول الملامح المستخلصة أن الأغلبية العظمى لا ترى فى الجامعة إلا وسيلة للحصول على وظيفة، مهمة بذلك الدور العلمى والثقافى الذى لا ينبغى أن يختصر إلى مجرد أداة للعمل بمعزل عن العلم.

الملمح الثانى أن أستاذ الجامعة لا ينفصل عن المجتمع فى سلوكه

وممارساته، وقد لا يخلو الوسط الجامعى من المنحرفين الضالين، ولكنهم لا يؤثرون فى مجمل الصورة الإيجابية للجامعة كمنارة للعلم والتنوير.

وثمة ملمح ثالث يتجسد فى الدور الثقافى الذى يمارسه أساتذة الجامعة، فهم عنصر فعال فى تشكيل الثقافة القومية بما يضيفونه من مؤلفات وبحوث وما يقدمونه من أفكار ونظريات.

ولقد نجح مؤلف الكتاب، من خلال التمهيد والخاتمة والفصول السبعة التى تتكون منها دراسته، أن يستنبط شهادة كاتب العربية الأول نجيب محفوظ عن الجامعة المصرية منذ نشأتها إلى نهاية الستينيات. ولا شك أن تطوراً كبيراً قد طرأ على الجامعات فى العقود التالية، وهو ما لم يعبر عنه نجيب محفوظ بحكم الإطار الزمنى الذى يكتب عنه وفيه.

والمأمول أن يكون الكتاب الذى يقدمه مركز دراسات وبحوث المستقبل بجامعة المنيا، بمثابة التحيّة للمشاركين فى أسبوع شباب الجامعات وأن يكون - فى الوقت نفسه - تحية للرواى العالمى الكبير.

و. ماهر مصطفى ثامر

مقدمة

د. محمد عاطف كشك

مدير مركز دراسات المستقبل

عندما كنت طالباً في الجامعة في أوائل الستينيات كنت أنظر الى أساتذتي باعتبارهم أنصاف آلهة أو قديسين وهبوا أنفسهم للعلم والتعليم، وعندما أصبحت أستاذاً بالجامعة تغيرت نظرتي إلى أستاذ الجامعة حيث كنت أقرب إلى رؤية أشياء لا يستطيع أن يراها الطالب في أستاذه. رأيت أساتذة وهبوا أنفسهم للعلم والتعليم ورأيت أساتذة وهبوا أنفسهم للجهل والتجهيل وآخرين وهبوا أنفسهم للغش والتدليس، وفيما بين النقيضين شاهدت كل أنواع الطباع والأخلاق.

وبجانب خبرتي الشخصية التي تطورت كما ذكرت، كنت أقرأ أحيانا بعض الأعمال الأدبية أو أشاهد بعض المسرحيات أو الأفلام السينمائية أو المسلسلات التليفزيونية التي تصور بعض أساتذة الجامعة، وفيما عدا قلة قليلة من هذه الأعمال، كانت صورة أستاذ الجامعة كما تعرضها الأعمال الأدبية أو الفنية صورة بالغة السطحية وأحياناً بالغة التشوه، كأن يعرض أستاذ الجامعة في صورة رجل (أو امرأة) مهملاً في حياته الشخصية وفي مظهره دائم النسيان والتوهان يرتدى معطفاً أبيض ونظارة سمكة يقف في معمله أو ينكب على كتبه ومراجعته ولا يدري شيئاً عما يدور حوله من أحداث.

وهذه الصورة السطحية أو المشوهة لأستاذ الجامعة في الأعمال

الأدبية أو الفنية طالت أيضاً غيره من فئات المجتمع مثل القضاة أو المحامين أو الأطباء أو المهندسين، وحدثت بسببها أحياناً مشاحنات أو اعتراضات من بعض هذه الفئات على منتجى العمل الفنى أو الأدبى. لكننا فى هذا الصدد يجب أن ندرك أمرين: الأول أن العمل الأدبى أو الفنى غير مطالب بأن يعرض صورة مثالية لأى فرد من أفراد المجتمع، والثانى أن مثل هذه الصورة المثالية لا وجود لها فى الواقع. فاستاذ الجامع أو القاضى أو المهندس لا يتم تكوينه فى أنبوبة اختبار بمعزل عن المجتمع الذى يعيش فيه، وهو مثله مثل أى فرد آخر فى المجتمع نتاج التطور التاريخى والظروف السياسية - الاقتصادية - الاجتماعية - الثقافية السائدة.

والكتاب الذى بين أيدينا يقوم صورة الأستاذ الجامعى فى رواية من روايات الكاتب المصرى العالمى الفذ "نجيب محفوظ"، وربما تكون الصورة التى يقدمها غير كاملة أو غير معبرة من كل ما نتوقعه أو نعرفه عن أستاذ الجامعة، لكن أهميتها تنتج من عاملين:

الأول: أهمية ومكانة نجيب محفوظ وخاصة فى تعبيره الواعى والمستنير عن جوانب كثيرة من الواقع المصرى.

الثانى: المعرفة الموسوعية لمؤلف الكتاب الصديق مصطفى بيومى بالأدب المصرى المعاصر عامة وبالعالم نجيب محفوظ بصفة خاصة.

وأرجو أن يكون مركز البحوث والدراسات المستقبلية بتقديمه لهذا الكتاب المهم مسهماً بقدر ما فى إزالة أى أوهام متعلقة بصورة أستاذ الجامعة وأن يقدم للقراء - والطلاب بصفة خاصة - صورة أقرب إلى الواقع لأستاذ الجامعة وما يمكن أن يكون له من دور فى تشكيل واقع ومستقبل مصر.

و. محمد عاطف كشك

إهداء ..

إلى أخى ..

الدكتور/ محمد مؤنس

وإلى الصديقين العالمين ..

الدكتور/ محمد عاطف كشك

الدكتور/ محيى الدين محسب

وإلى روح المرحوم ..

الدكتور/ على البطل

.....

التناويل المضيئة فى ورب حياة سعدة

م. ب

تمهيد

يمثل التعليم الجامعي أهمية خاصة في الواقع المصري وفي عالم نجيب محفوظ الذي يعكس هذا الواقع ويعبر عنه ويتفاعل معه، ذلك أن الحصول على شهادة جامعية يعنى وجود فرصة لاحتلال مكانة اجتماعية متميزة من خلال الحصول على وظيفة ترتفع بصاحبها درجات في السلم الاجتماعي الطبقي الذي يميز - بصرامة - بين حملة الشهادات العليا وغيرهم.

لا ينتمى كل الموظفين بطبيعة الحال إلى حملة المؤهلات العليا، فالكثيرون منهم لا يتمكنون من إكمال تعليمهم وتتفرق بهم السبل في رحلة الحياة الوظيفية، والكثيرون - أيضا - لا يجدون مكانا في عالم الوظيفة فيقتنعون بالمهن والحرف البسيطة التي تتناسب مع تعليمهم المحدود.

تَهيّد

الذين زاملوا كمال عبد الجواد في مطلع حياته الدراسية لم يواصلوا رحلة التعليم التي واصلها: منهم من توظف بالابتدائية أو الكفاءة، ومنهم من اضطر إلى مزاوله عمل من الأعمال البسيطة مثل صبي قهوة بين القصيرين وصبي الكواء البلدى بخان جعفر. "قصر-75"

والذين يتوقفون عن إتمام دراستهم ويقنعون بالوظائف الصغيرة، يختلفون في الدوافع التي ألجأتهم إلى العمل المبكر، وتباین حظوظهم بعد العمل.

عدم الاستعداد للتعليم وضعف القدرة على التلقى قد يكون السبب في التوقف دون ضغوط مادية أو أسرية أو خارجية.

كان كامل رؤية لآظ - منذ البدء - متعثراً في دراسته، ولم يستطع بعد حصوله على البكالوريا بصعوبة أن يتحمل الدراسة في كلية الحقوق. إن ما دفعه إلى التوقف عن الدراسة هو الاستعداد المحدود والعجز عن استيعاب الدروس والخجل من المواجهة. نجح جده في الحصول له على وظيفة صغيرة، ولم يكن التوظيف إجبارياً حتى تتحطم آماله في المستقبل: لم أكن ممن يشقيهم الطموح، وإذا كان لى منه شئ فيما مضى من أيام الأحلام، فقد قبر في إدارة المخازن بوزارة الحربية حيث تعد علاوة نصف جنيته من الآمال البعيدة. "السراب - 107"

وقد التحق عزت عبد الباقي - مثل كامل رؤية - بكلية الحقوق، ولكنه خاب في دراسته القانونية. لا الهمة وجد و لا الحماس، فانقطع عن الدراسة بعد عامين من الالتحاق بها. "عصر-68"

ثراء عزت ينفى أن يكون توقفه عن التعليم بسبب الحاجة. إنها

_____ أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ
الخيبة وافتقاد الهمة والحماس والعجز عن المواصلة. وهذه الأسباب بعينها
هى التى جعلت سليمان بهجت يتوظف بشهادته الزراعية المتوسطة فى
وزارة الزراعة. "الباقى - 35"

ما يجمع بين الثلاثة، كامل وعزت وسليمان، هو توقفهم عن
مواصلة الدراسة لأسباب ذاتية تتعلق بفسلهم وعجزهم.

وثمة فريق أكبر يتوقف عن التعليم ويقنع بوظيفة لا تناسب طموحه
ومواهبه واستعداده لأسباب مادية تتمثل فى العجز عن مواصلة الإنفاق على
التعليم، و أسباب أسرية تتمثل فى حتمية إنفاقهم على أسرهم بعد وفاة
العائل أو توقفه عن العمل.

لقد أحيل والد أحمد عاكف إلى للمعاش - وكان يشارف الأربعين -
لإضاعته عهدة مصلحيه بإهماله، وتطاوله على المحققين الإداريين، فأجبر
الابن على قطع حياته الدراسية والالتحاق بوظيفة صغيرة لينفق على أسرته
المحطمة ويربى أخويه الصغيرين اللذين مات أحدهما، وصار الثانى موظفاً
ببنك مصر. "خان - 14"

كان التوقف عن الدراسة طعنة لطموحات وأحلام أحمد عاكف الذى
تحول - بسبب توقفه عن الدراسة - إلى موظف فى الدرجة الثامنة
بمحفوظات وزارة الأشغال لا يملك إلا أن يشكو حظه العاثر ويكرر أقوالاً
مثل: " لو أتممت دراستى - وكان نجاحى مضموناً - لكنت الآن كيتنا
وكيتنا!".

ولم يكن يفوته تتبع خطى المتفوقين من أقران المدرسة الذين وصلوا
دراستهم، وليس نادراً أن يرفع رأسه عن جريدة بين يديه، ويقول بإنكار:

تهد

”أعرفون فلانا الذين يقولون عنه ويعيدون؟.. زاملنى عهد الدراسة فصلاً فصلاً، وكان تلميذاً خاملاً لا يطمع أن يدركنى يوماً ما. “نفسه – 15 “

لو أنه أكمل تعليمه الجامعى لكان له شأن ”وظيفى“ آخر، ولأنه لم يفعل فقد امتلاً مرارة وحقدًا، وانقلب معادياً للجامعيين مسفهاً للشهادات التى حصلوا عليها !.

أحمد مخلص فى حبه لشقيقه رشدى، ولكن هذا الحب لا يحول دون السخرية من الشقيق العايب الذى حصل على بكالوريوس التجارة بمعجزة، وهى ”الشهادة“ التى تفضل الحكومة حاملها – كما يقول أحمد – على أمثاله. “نفسه – 104 “

لم يكن رشدى ”جامعياً“ بالمعنى الدقيق، فهو لا يعبأ بالموضوعات العلمية وما يصاحبها من اصطلاحات، كما أنه من المؤمنين بعبقريته أخيه، ولذلك رأى فيه أحمد رمزا حياً لإيمان الجامعة المصرية بعبقريته العاصمية !. “نفسه – 109 “

ويختلف الأمر بالنسبة للمحامى أحمد راشد، فهو ”جامعى“ بحق ويمثل ”غريماً“ لعاكف الذى يتورط معه فى مناقشة خاسرة عن قيمة وأهمية الشهادات الجامعية. فإذا يفخر عاكف بالمعارف التى يتوهم أنه حصلها من القراءات المتنوعة المشوشة التى يدمنها، مستكبراً ومستكبراً أن تكون ثقافته هذه بهدف الحصول على ”شهادة“ ما :

– أية شهادة تستوجب هذه الدراسة الطويلة الشاملة؟! ما الشهادة إلا لعبة يستبق إليها الشبان، أما دراستى فلا غاية لها إلا العلم الحق، وربما مهدت بها يوماً إلى التأليف المنتج.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

يتساءل أحمد راشد :

– ما معنى أن الشهادة لعبة؟

فقال أحمد كاظمًا حنقه :

– الشهادة ليست دليل العلم!

– أهى دليل الجهل؟

فأخذ غيظه يفور حتى أجده أن يكتمه، ثم استدرك قائلاً:

– أعنى أن الشهادة هى الدليل على أن شاباً حفظ بعض المواد بضع سنين

والعلم الحق شئ غير هذا البتة!

فابتسم أحمد راشد ابتسامة غامضة وأمسك عن الجدل، وكان يعطف

على رأى محدثه فى الشهادات. بل إنه لم يرغب عنه الحدة التى يسوق بها

رأيه مما جعله يميل إلى فرض احتمال وجود أسباب أخرى لذلك الرأى غير

التى أعلنها. "نفسه -52"

أحمد بلا شهادة جامعية، وغياب الشهادة يدفعه إلى تسفيه من

يحملها!. وإذا كان أخوه رشدى يمثل نموذجاً للجامعيين الذين لا يعبأون

بالعلم والثقافة ولا يمثلون تحدياً لأحمد، فإن المحامى اليسارى أحمد

راشد يطرح – بعلمه وثقافته – تحدياً يدفع الموظف المنسى الحانق إلى

مناقشة عصبية بلا منطق. الشهادة الجامعية ليست "لعبة" بطبيعة

الحال، وإذا لم تكن "دليل علم" فهى ليست بالضرورة "دليل جهل".

المحامى الجامعى ليس متعصباً لأهمية الشهادة، وهو – لأسباب

مختلفة تماماً – يتفق مع جوهر أفكار عاكف، ولكنه يدرك أن حنق

تمهيد

محاورة على الجامعة وشهاداتها ينبع من منطق مختلف.

ولو أن أحمد عاكف واصل دراسته الجامعية لكان له شأن "وظيفي" آخر، ولكان له - بالتبعية - رأى مغاير في الشهادات وأصحابها.

وإذا كانت إحالة عاكف أفندى المبكرة إلى المعاش قد حالت بين الابن أحمد ومواصلة دراسته الجامعية، فإن موت على أفندى كامل قد عرض أسرته لصير مظلّم دفع ابنه حسين إلى التوظيف بالبيكالوريا. رغم تقدير الأم واحتراف الأخت للخياطة، كان توظيف حسين ضرورياً لمواجهة الحياة القاسية.

ولأن طموح حسين لا يتناسب مع واقعه الوظيفي، فإنه يعى مأساة توقفه عن التعليم ويرصد تأثير ذلك التوقف على مستقبله مقارنة بمستقبل أخيه حسنين الذي سيواصل الدراسة: إنه من الغد موظف من موظفي الدولة وبعد أعوام قصيرة أو طويلة يصبح حسنين موظفاً أيضاً من درجة أعلى. "بداية-203"

ويدفعه هذا الوعي إلى تأمل الفوارق الطاغية التي تميز بين الموظفين. "نفسه - 306"

وجانب كبير من هذه الفوارق "الطاغية" يعود إلى المؤهل الدراسي!

وبعد موت أمه، وهى عائله الوحيد، يضطر عثمان بيومي إلى العمل بالبيكالوريا رغم تفوقه. "حضرة - 14"

لقد اضطر أحمد عاكف وحسنين كامل وعثمان بيومي إلى التوقف عن الدراسة إجبارياً، وشبح التوقف عن الدراسة يواجه محجوب عبد الدايم بعد مرض أبيه وتؤكد استحالة عودته إلى العمل. الأب المريض يخاطب ابنه قائلاً:

_____ أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

ربما منحتنى الشركة مكافأة صغيرة، ستفقد بلا ريب قبل مضي أشهر قلائل، بل المؤكد أنه لن يبقى منها شئ بعد ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر، ولكن لن أعدم نصيراً أجد لك وظيفة تنهض بنا جميعاً. "القاهرة - 38"

رغبة الأب في توظيف ابنه لـ "تنهض بنا جميعاً" تأتي قبل شهور قليلة من امتحان الليسانس، ويكون المخرج الوحيد أمام محجوب لمواجهة هذا التهديد الكبير لمستقبله أن يعيش الشهور المتبقية حتى الامتحان وظهور النتيجة بجنيه واحد في الشهر: جنيه واحد! أو ما يساوى إيجار حجرة بدار الطلبة؟ رباه! بالأمس ضاقت به الدنيا ونفقتة ثلاثة جنيهاً، فماذا هو صانع غدا بجنيه واحد؟! "نفسه-40"

واختار محجوب أن يواصل دراسته ويقبل التحدى، فهو يعلم جيداً قيمة الشهادة التي تستحق التضحية والصبر.

وفضلاً عن ضعف الاستعداد للتحصيل العلمى والعوامل المادية السيئة، فإن هناك من يتوقف عن الدراسة لمزيج من ضغوط الحياة والظروف الذاتية. الفقر ليس الدافع الوحيد فى هذه الحالة، ولكنه الدافع الرئيس.

يتوقف حمدون عجرة عن التعليم بعد المرحلة الثانوية، ويقرر أن يتوظف ليخفف عن خالته من ناحية ويهب بقية يومه للمسرح من ناحية أخرى. "عصر-56"

ويطوف أنيس زكى بكلليات الطب والعلوم والحقوق فيمضى بعلمومها دون شهاداتها كأي رجل لا تهمه المظاهر كما يقول رجب القاضى ساخراً. "ثرثرة-31"

عهد

ولكن أليس زكى يقدم السبب الحقيقى لعدم إكمال التعليم، وهو مزيج من عدم الاستعداد ومعاكسة الظروف المادية: لم أوفق للنجاح ثم انقطعت عنى الموارد، فتوظفت فى وزارة الصحة بواسطة طبيب من أساتذتى السابقين. "نفسه-63"

وتتدخل السياسة أحياناً لإفساد وقطع رحلة التعليم.

يصف نجيب محفوظ زميله فى الدراسة ناجى مرقص بأنه "أنبغ تلميذ فى جيلنا"، ولكن السياسة تتدخل لتجبر الطالب النابغ على العمل كموظف صغير فى وزارة الحربية. ذهب أبو ناجى لتهنئة الزعيم مصطفى النحاس بالبراءة التى حصل عليها فى قضية سيف الدين، وظهرت صورته لسوء الحظ ضمن صور المهنئين فقررت الوزارة فصله. وشق على الرجل الرفعت وكان فقيراً كما كان مريضاً بالقلب فأصيب بالفالج وقضى نحبه. "المرأيا-380"

وبعد موت الأب، يضطر التلميذ النابغ إلى التوقف عن التعليم والرضا بوظيفة لا تناسب نبوغه.

وإذا كانت السياسة سبباً غير مباشر بالنسبة لناجى مرقص، فإنها السبب الوحيد لتوقف حامد على عن إكمال دراسته الجامعية وشغله لوظيفة بسيطة. تسأله عليات التى أعجبت بحديثه الذكى المثقف:

— من أى كلية ؟

فقال بلا ارتياح:

— الثانوية العامة فقط!.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

فارتبكت قليلاً وقالت:

– الحق انك مثقف جداً.

– هذا شيء آخر.

وقرأ في عينيها تساؤلات تداريها بأدبها، فقال:

– عقب حصولي على الثانوية العامة أعتقلت!

فتساءلت باهتمام:

– لم.

فقال ضاحكاً:

– بتهمة الشيوعية! "الحب تحت – 164"

اللافت للنظر في الحوار السابق أن الحديث الذكي المثقف لا ينبغي أن يصدر – من وجهة نظر عليات – إلا من حاصل على مؤهل جامعي، أما حامد نفسه فيفصل بين الشهادة والثقافة. والفارق كبير بين أحمد عاكف في "خان الخليلي" وحامد على في "الحب تحت المطر"، فالأول حاقد موتور متعالم والثاني مثقف حقيقي بلا ادعاء، وكلاهما بلا شهادة جامعية!

وهكذا تتعدد الأسباب التي تحول بين الكثيرين وإكمال تعليمهم العالي الذي يؤهلهم لوظائف أفضل من التي يشغلونها بمؤهلاتهم المتوسطة. ولكن: هل ينتهي الأمر عند هذا الحد؟

ألا يمكن استكمال التعليم الجامعي أثناء العمل؟! بعض الموظفين يحاولون ويفشلون، وبعضهم يحاولون وينجحون.

تمهيد

أحمد عاكف من الذين حاولوا وفشلوا: انتسب لكلية الحقوق، ولكنه رسب في مادتين وخشى أن يعاود التجربة فتعرض عبقريته لامتحان خطير يكشف عن حقيقتها!. "خان-18"
الناجحون أكثر.

كان شرارة النحال عاملاً للتليفون ومن حملة الابتدائية، وأثناء عمله المرهق انقلب من جديد تلميذ مجتهداً وحصل من "منازلهم" على شهادات الكفاءة فالباكالوريا وأخيراً ليسانس الحقوق. "المرايا-178"
وعلى المؤذن توظف بالابتدائية، ثم درس وهو موظف حتى بلغ ما بلغ من العلم. "نفسه-240"

يوصل عثمان بيومي دراسته أثناء العمل حتى حصل على ليسانس الحقوق، ويقدم نجيب محفوظ الأسلوب الوظيفي المتبع لمعاملة الحاصلين على مؤهل جامعي أثناء عملهم من خلال الرسالة التي يخطر بها عثمان المدير العام بحصوله على الليسانس:

حضرة صاحب المعالي المدير العام

أتشرف بإبلاغ سعادتك بأنني حصلت على ليسانس الحقوق هذا العام - من منازلهم - استزادة من العلم واستكمالاً للوسائل الضرورية للموظف، مستلهماً الهمة من عبقرية سعادتك، في ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه.

رجاء التكرم بالعلم والأمر بحفظ الشهادة المرفقة

بملف خدمتي. "حضرة-46"

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

معايشة نجيب محفوظ الواقعية لعالم الموظفين هي التي مكنته من الإحاطة الشاملة بخصائص هذا العالم الذي لا يعرفه إلا من يعايشه عن قرب. إنه عالم "طبقى"، ولكنه طبقاته هي الشهادة والدرجات العلمية!.

الحاصلون على المؤهلات العليا يتربعون على قمة الهرم الوظيفي، وغير الحاصلين على مؤهلات يسقطون في السفح، أما أصحاب المؤهلات المتوسطة فيمثلون الطبقة الوسطى. بعض هؤلاء ينجح في الصعود، والغالبية تبقى متأرجحة يهددها شبح الهبوط وتؤرقها أحلام الصعود.

وفى إطار العلاقة بين التعليم الجامعى والعمل، تتميز المرأة بخصوصية يكشف عنها عالم نجيب محفوظ. مشكلة المرأة تكمن فى نظرة المجتمع السلبية، خلال مرحلة تاريخية بعينها، لتعليمها وعملها معاً.

وعلى الرغم من أن ثورة 1919 قد غيرت كثيراً من المفاهيم والقيم المسيطرة على المجتمع المصرى، فإن قضية تعليم وعمل المرأة من القضايا التي استمرت مطروحة للمناقشة دون حسم، وظل العداء لتعليم المرأة والريبة فى النساء العاملات مستمراً.

تحدثت حرم حمديس بك عن فتيات الجامعة فتقول، وكأنها تدافع عن ابنتها تحية، إن الجامعة تمهيد للتوظيف، وإنها لذلك اختارت لتحية سبباً آخر. "القاهرة-139"

اللافت للنظر هنا هو الحديث بيقين عن مهمة الجامعة كتمهيد للتوظيف، فإذا غابت الرغبة فى العمل تبخرت - بالتبعية - أهمية الجامعة وجدواها!.

عَهِد

بنات الأسر الطيبة لا يعملن! هذا ما يردده ويمارسه ياسين أحمد عبد الجواد، فإذا يقول أحد زملائه:

- ستأخذ ابنتي البكالوريا هذا العام، وسألحقها بمعهد التربية فأرتاح من ناحيتها، لا مصروفات ولا تعب قلب في البحث عن وظيفة بعد التخرج.

يرد ياسين:

- نحن لا نلحق بناتنا بالثانوى، ولماذا؟. إنها لن تتوظف.
"السكرية -196"

وبالمنطق نفسه ترد أمينة على ابنة ابنتها، نعيمة بنت عائشة، التى تحتج على حرمانها من التعليم رغم أن زميلاتهما يواصلن التعلم:

- لست فى حاجة إلى الوظيفة!. "نفسه -10"

ياسين وأمينة، وحرّم حمديس بك قبلهما، لا يميزون بين الجامعة والوظيفة، فكان "العلم" الذى يلقي فى الجامعة مجرد وسيلة للحصول على "العمل" دون تفكير فى وجود أدوار ووظائف أخرى للجامعة. ولذلك تنتفى الحاجة إلى التعليم الجامعى بانتفاء الاحتياج المادى إلى العمل!.

ولكن رفض عمل المرأة لا يعنى بالضرورة رفض تعليمها، فالكثيرون لا يجدون حرجا فى أن تتعلم ولا تعمل. مدام حمديس بك تعلم ابنتها، وياسين عبد الجواد يعلم ابنته، وهذا التعليم ينتهى عند مرحلة معينة دون

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

أن يقضى إلى العمل. وعبد الوهاب إسماعيل لا يجد بأساً في أن تتعلم المرأة لحساب البيت لا الوظيفة. "المرايا-262"

أما الفتاة الأرستقراطية علوية صبرى فإنها تعترف بأنها لا تتعلم من أجل الوظيفة: لم أذهب إلى الجامعة لأتوظف كسائر زميلات. "السكينة-223"

وفي المقابل لا يعنى العمل نهاية التعليم عند فتيات كثيرات. توظفت أحلام بعد تخرجها في التجارة الثانوية: ولكنى مستمرة في التعليم. "الطريق-71"

هل يقتصر دور الجامعة على تخريج الموظفين؟ عالم نجيب محفوظ، الذى يبدي اهتماماً هائلاً بالموظفين وقضاياهم وهمومهم، يبدو أقل احتفالاً بالجامعة التى تخرج فيها عدد غير قليل من هؤلاء الموظفين. فى عديد فى أعمال نجيب محفوظ طلبة جامعيون ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة، ويتبنون أفكاراً سياسية متباينة، ولكن من الصعوبة بمكان أن نلمس دوراً لأساتذة الجامعة فى تشكيل شخصياتهم والتأثير على آرائهم وأفكارهم. وقد نجد فى "بين القصرين" رصداً أميناً للدور الذى لعبه طلبة المدارس العليا فى ثورة 1919⁽¹⁾، وقد نجد فى "القاهرة الجديدة" و "السكينة" رصداً مماثلاً للحياة الجامعية وما يعتمل فيها من صراعات تعبر عن الواقع السياسى والاجتماعى والثقافى خارج أسوار الجامعة، ولكن الذى يلفت النظر بحق أن

(1) كان الشهيد أحمد فهمى عبد الجواد طالباً فى كلية الحقوق، ومن خلاله تقدم "بين القصرين" عرضاً توثيقياً فنياً بالغ الأهمية لأحداث ثورة 1919 والدور الذى قام به طلبة المدارس العليا "الكليات الجامعية" فى إشعالها.

شخصية أستاذ الجامعة المصري⁽²⁾ لا تحظى بوجود مؤثر في روايات وقصص نجيب محفوظ، وهو الذى كان من الممكن أن يكون أستاذ جامعيًا لولا تعثر إجراءات سفره فى بعثة خارجية⁽³⁾.

لا يحظى أساتذة الجامعة بما يحظى به الموظفون، وثمة مناقشة مهمة تدور بين "الموظف" محجوب عبد الدايم وطالب البعثة الذى سيعود أستاذًا جامعيًا مأمون رضوان: وتحدثا عن البعثة والوظائف الإدارية والفنية ومهنة التدريس فى الجامعة والمدارس الثانوية، وانتقد مأمون النظام الجائر الذى يحرم المتخصصين الاشتغال بفنهم الذى تخصصوا فيه، ولم يرتح محجوب إلى التهور من شأن الوظائف الإدارية، وقال لصاحبه: إنها تنفرد بمجد ليس لمهنة التعليم منه نصيب. وكان مأمون يفهم المجد على نحو آخر... "القاهرة-150"

(2) تجدر الإشارة هنا إلى وجود أساتذة أجانب، من الإنجليز والفرنسيين تحديدًا، فى الجامعة المصرية خلال العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات، والوجود الأكبر لهؤلاء الأساتذة عند نجيب محفوظ نجده فى "القاهرة الجديدة" و"السكرية". وعلى سبيل المثال فإن الأستاذ الفرنسى للفلسفة فى رواية "القاهرة الجديدة" هو الذى رشح مأمون رضوان لبعثة السوربون، ووصى بتعيين على طه فى المكتبة لينتهي له جو حسن لتحضير رسالته. "القاهرة-79"

وفى "السكرية" يرتبط أحمد شوكت بعلاقة وثيقة مع أستاذ علم الاجتماع الإنجليزى مستر فورستر، وهو الذى ينصح تلميذه بالتقدم للماجستير بعد حصوله على الليسانس. "السكرية-218"

(3) كان نجيب محفوظ مرشحاً لبعثة دراسية إلى فرنسا، وتدخلت السراى لاستبعاده ظناً أنه قبطى، والعداء معروف بين السراى والأقباط لأنهم عمد حزب الوفد. التفاصيل فى العدد الخاص الذى أصدرته مجلة "الهلال" المصرية عن نجيب محفوظ، عدد فبراير 1970، ص 97.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

"المجد" الذى يفكر فيه محجوب ماذى صرف، وليس أدل على ذلك من استدعائه لمأمون رضوان بعد ترقيقته إلى الدرجة الرابعة مديراً لمكتب الوزير بمرتب 25 جنيهاً فى الشهر: مأمون رضوان نفسه لن يزيد مرتبه بعد عودته من البعثة - بعد ثمانية أعوام - على مرتبه هذا! "نفسه-177"

لا يفكر محجوب فى كيفية وصوله إلى المنصب الكبير خلال شهور قليلة، ولا يفكر فى وظيفة مأمون الجامعية وجلالها، فغاية ما يشغله هو المرتب الذى يحصل عليه كل منهما!.

لا تنعقد البطولة للأستاذ الجامعى فى أى من روايات نجيب محفوظ، بل لا توجد فى عالمه كله شخصية أستاذ جامعى تلعب دوراً مهماً ومؤثراً.

وهنا تظهر أهمية "المرايا".

"المرايا" سيرة ذاتية روائية يقدم فيها نجيب محفوظ صوراً فنية عن خمسة وخمسين شخصية، وقد نشرت الرواية - لأول مرة - مسلسلة فى مجلة "الإذاعة والتلفزيون" فى الفترة من أول مايو سنة 1971 إلى السادس عشر من أكتوبر فى العام نفسه، وظهرت طبعتها الأولى سنة 1972.

و"المرايا" تجربة روائية جديدة بالاهتمام، وقد انقسم النقاد حولها إلى درجة التناقض.

ناقد كبير مثل الدكتور صبرى حافظ يذهب إلى أنها تقدم صورة بالغة القنامة والكآبة لعدد كبير من كتاب مصر وثقفيها، وصورة متضخمة لذات تحاول أن تعلو من شأنها عن طريق الزرارية بالآخرين والنيل منهم وتشويههم.

ويحتد الدكتور صبرى إلى الدرجة التى يرى فيها أن نجيب محفوظ
برجوازى صغير حاقد مغرور تصور له أوهامه أن كل النساء ساقطات، وكل
الرجال زانفون، وأنه هو الوحيد الناصع اليد الطاهر الذيل، الناجح فى
غزواته النسائية والثقافية على السواء⁽⁴⁾.

أما الناقد الكبير رجاء النقاش، وهو الذى نشر الرواية مسلسلة فى
فترة رئاسته لتحرير مجلة "الإذاعة والتلفزيون"، فىرى أن "المرايا" عمل
أدبى جميل وصادق، يروى فيها نجيب جانباً من تجاربه الخاصة مع
شخصيات عرفها وشخصيات أخرى تخيلها، ونجيب ينقد فيها بعض
الأوضاع والنماذج الإنسانية الشائعة فى المجتمع⁽⁵⁾.

غضب صبرى حافظ مرده إلى أسباب سياسية مؤقتة، وحماس رجاء
النقاش موضوعى أدبى. وحقيقة الأمر أن الشخصيات التى يعرض لها نجيب
محفوظ تمثل خليطاً يعبر عن تنوع الحياة الإنسانية الصاخبة، فنجد أساتذة
الجامعة وضباط الشرطة والجيش والعاطلين بلا عمل والطلبة والأطباء
والموظفين والكتاب والصحفيين والتجار والفنانين والمحامين وتجار المخدرات
والسماسرة والقوادين وسعاة المصالح الحكومية وربات البيوت والسماكين.
وعلى خلاف الأعمال السابقة واللاحقة لنجيب محفوظ، تنفرد "المرايا"
باهتمام ملحوظ بشخصية أستاذ الجامعة. سبعة من شخوص الرواية أساتذة
فى الجامعة أو كانوا أساتذة فيها قبل انتقالهم إلى وظائف أخرى، وهذا العدد

(4) د. صبرى حافظ: تزييف الوعى وتشويه التاريخ، مجلة الأقلام، بغداد،
تموز 1984، ص ص 55-62.

(5) رجاء النقاش: فى حب نجيب محفوظ، دار الشروق، القاهرة،
ط1، 1995، ص 246.

_____ أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

يمثل نسبة تقترب من 13٪ من أجمالي شخصيات الرواية. والنسبة مرتفعة بمقاييس الواقع من ناحية ومن حيث اهتمام روايات نجيب محفوظ الأخرى من ناحية ثانية.

تتوقف دراستنا هذه أمام صورة أستاذ الجامعة كما تقدمها رواية "المرايا"، ونعرض لهذه الصورة من خلال سبعة فصول تتناول شخصيات:

- إبراهيم عقل "كلية الآداب"
- زهير كامل "كلية الآداب"
- سرور عبد الباقي "كلية الطب"
- عزمى شاکر "كلية الآداب"
- كامل رمزی "كلية التجارة"
- ماهر عبد الكريم "كلية الآداب"
- محمود درويش "كلية الآداب"

وليست صدفة أن تحظى كلية الآداب بالنصيب الأوفر، فهي الكلية التي تخرج فيها الروائي الكبير، وهي الكلية التي تسهم بنصيب عظيم في حياتنا الأدبية والثقافية.

ومن الضروري أن نشير إلى أن اهتمام الدراسة ينصب في المقام الأول على الإطار الإنساني العام لأستاذ الجامعة، ذلك انه ليس إلا واحداً من أبناء المجتمع: يخضع لقوانينه ويتأثر بتحولاته ويتفاعل مع متغيراته.

وإذا كان الإطار الزمني لرواية "المرايا" ينتهي في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، فإن كل تغيير طرأ على المجتمع والجامعة

تمهيد

معاً فى الفترات التالية بمثابة الامتداد لا الانقطاع للدور السياسى والاجتماعى والثقافى الذى يلعبه أساتذة الجامعات المصرية فى تشكيل الواقع والتشكل به.

لا يزعم الباحث أن الدراسة تحيط بكل جوانب صورة الحياة الجامعية فى عالم نجيب محفوظ، ولكنها تطمح فى الإحاطة الشاملة بكافة أركان صورة الأستاذ الجامعى كما تقدمها "المرايا"، وهى الرواية الأكثر اهتماماً بالجامعة وأساتذتها فى كل ما كتب نجيب محفوظ.

مصطفى بيومى

المنيا - ديسمبر 2000



الفصل الأول



إبراهيم عقل

تبدأ معرفة الراوى بالدكتور إبراهيم عقل - قبل أن يراه - من خلال مقال نشره الأستاذ سالم جبر وأشار فيه إلى الدكتور باعتباره عقلا فذا بشر في وقت ما بثورة فكرية فى حياتنا الثقافية لولا وشاية حقيرة أجهضته قبل أن يقف على قدميه، ردها شخص لا خلاق له زاعما بأنه طعن فى الإسلام ضمن رسالة الدكتوراه التى قدمها للسوربون.

وبسبب هذه التهمة تعرض الدكتور إبراهيم لهجوم عنيف من بعض الصحف والمجلات، وطالب المهاجمون بفصله من الجامعة. ولأن الدكتور ليس ذا طبيعة مقاتلة، ولأنه فى حاجة إلى وظيفته، فقد تحول إلى حالة دفاعية لإخماد الفتنة.

أزمة الأستاذ الجامعى إبراهيم عقل لا تكمن فى علمه أو فى عقله، ولكنها فى المناخ الاجتماعى الذى لا يتسع لحرية الفكر وفى الشخصية المهترزة التى لا تستطيع المقاومة وتؤثر السلامة والانسحاب والانحناء الدائم

إبراهيم عقل

للعاصفة. ولعل أفضل ما يجسد هذه المعادلة ما يقوله - أيضاً - سالم جبر عن الدكتور إبراهيم كضحية لمجتمع فاسد، وإن لم يغفر له انهزاميته.

والدكتور ماهر عبد الكريم، الذى يحظى باحترام من الراوى يصل إلى درجة تقترب من التقديس، يقدم شهادة إيجابية عن الدكتور عقل - زميله فى السوربون - ويقول عنه:

- إنه عقلية فذة، وكان يبهرنا بذكائه ونحن فى السوربون.

- وهو الوحيد فى مصر الذى يتمتع بعقل فلسفى، بالنظرة الشاملة للأشياء.

- لم يُخلق كاتباً، ولكنه محدث موهوب، نوع من سقراط، خص أصدقاء الحميمين بزبدة أفكاره. وطرح أيسر ما عنده على الناس.

عقلية فذة وذكاء خارق وعقل فلسفى ونظرة شاملة، ولكن ما يفسد ذلك كله هو الانعزال عن الناس والتقوقع على الذات والعجز عن التواصل. إنه - كما يقول الراوى مقترباً من الموضوعية - أستاذ بلا تلاميذ ولا مريرين.

كانت الأزمة التى تعرض لها الدكتور عقل فى بداية حياته الجامعية فوق قدرته على التحمل، وعلى الرغم من تراجعته ومهادنته فإن "سمعته" بقيت عند الكثيرين سيئة ومريبة متأثراً بالاتهام القديم. بعد سنوات من العاصفة يتعرف الراوى - فى مطلع حياته الوظيفية - على واحد من غلاة المحافظين هو طنطاوى إسماعيل، وسرعان ما يسأل الوافد الجديد من الجامعة:

- أكنت من تلاميذ الدكتور إبراهيم عقل؟

ويجيب الراوى باعتزاز:

- نعم ومن تلاميذ الدكتور ماهر عبد الكريم أيضاً.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

فيقول طنطاوى بصوت ذى رنة نحاسية:

— ماهر عبد الكريم رجل عظيم أما إبراهيم عقل فوغد كافر من ذيول
المبشرين!

ويرد الراوى وهو لا يجد حافزا للدفاع عن الرجل:

— يخيّل إلى أنه اعتزل الفكر ولم يبق من أستاذيته إلا شبح ...

فقال بحدة:

— لم يبق منه إلا مرتزق من المرتزقة!

المؤكد إن طنطاوى إسماعيل — الذى لا يعرف اللغة الفرنسية — لم
يطلع على رسالة الدكتوراه التى اتّهم إبراهيم عقل بسببها، ولكنه — من
وحى الحملة العاتية القديمة — لا يجد حرجا فى وصفه بأنه وغد كافر من
ذيول المبشرين!

كيف انتهى الحال بالعقلية الفذة التى بشرت بثورة فكرية فى
الحياة الثقافية المصرية، وأى مصير آل إليه من كان يبهر زملاءه فى
السوربون بذكائه ونظراته الشاملة؟!

لما التحق الراوى بالجامعة عام 1930 كان إبراهيم عقل أستاذاً
مساعداً بها، عديم الاهتمام بالحياة الفكرية، ومحاضراته تخلو من الدسامة
وأقرب إلى التوجيهات العامة.

وفى سياق آخر يعترف الراوى بأنه لا يكن لأستاذه احتراماً يذكر:
لعزوفه عن التأليف، ولعدم إخلاصه فى عمله. وما أعجبنى فيه إلا منظره
وخفة روحه وسخريته المموهة بالتفلسف.

إبراهيم عقل

ويتحول الموقف السلبي اللامبالي إلى عداً كامل لا هواده فيه عندما يمارس الدكتور إبراهيم فعلا سياسيا يوصف بالانتهازية من تلاميذه الوفديين، وفي مقدمتهم الراوى الذى لا يخفى انتماؤه الوفدى⁽¹⁾

تولى الدكتور إبراهيم عقل منصباً جامعياً كبيراً، ولكنه اغتال فى سبيله جميع مثله العليا. فى ظل عداً شعبى عارم للملك فؤاد، نشر الدكتور مقالة فى الأهرام يدعو فيها للولاء لصاحب العرش وينوه بأيدى أسرته على نهضة البلاد وبخاصة محمد على وإسماعيل.

هل كان هذا المقال هو "الثنى" الذى دفعه الدكتور ليرتقى به إلى المنصب الكبير الخطير غير المحدد؟ رؤية نجيب محفوظ الوفدية تلعب دوراً مهماً فى الرأى العنيف المتشدد، والرؤية نفسها تلون تقديم الموقف الطلابى من إبراهيم عقل وتخيل مشاعره الداخلية بعد الموقف السياسى الموصوف بالانتهازية: وظل الدكتور يخطر بيننا، متظاهراً بالثبات والشجاعة، يطالعنا بنظرات متحدية تخفى فى أعماقها إحساساً بالهزيمة والذنب. وكنا نلقاه بالاحترام اللائق بمركزه على حين نضمّر له الاستهانة والسخرية....

وكان لخفة روحه ومناورات البهلوانية خليقاً بأن يتبدى لنا مهرجاً أو دجالاً لا شريراً أو سفاكاً للدماء أو عدواً حقيقياً للشعب...

"يتظاهر" بالثبات والشجاعة، و"يخفى" إحساساً بالهزيمة والذنب. الاحترام الظاهرى هو ما يلقاه من تلاميذه، ولكن أعماقهم تنطوى على

(1) عن وفدية نجيب محفوظ راجع دراستنا: "الرؤية الوفدية فى أدب نجيب محفوظ"، وقد نشرت مسلسلة فى العدد الأسبوعى من جريدة "الوفد" خلال شهرى نوفمبر وديسمبر 1991.

_____ أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

الاستهانة والسخرية. إنه لا يرقى إلى مرتبة الأعداء الحقيقيين، وغاية ما يصل إليه أن يكون مهرجاً أو دجالاً!

لم يكن إبراهيم عقل قبل موقفه هذا ممن يحظون باحترام طلابه، ولكن السلوك الانتهازي الذي اتخذه حول العداء من دائرة السلبية التابعة من تقدير وتقييم عمله الجامعي كأستاذ إلى السلبية المرتبطة بخلل في الموقف الوطني.

في اليوم الأخير للدراسة يجتمع الدكتور عقل بطلبة الليسانس في القسم الذي يرأسه، ويصارعهم بكل ما يعتل في أعماقه. كأنما يدافع الرجل عن نفسه عندما يقول:

– المسألة أننى وجدت أناسا يخطبون وأناسا يعملون فاخترت الانضمام إلى العاملين. وكلنا في النهاية مصريون.

وإن يعترض الطالب اسحق بقطر على رأى أستاذه قائلاً:

– إن من يخطب مطالباً بالاستقلال والدستور خير ممن يبني الكورنيش ويسفك الدماء⁽²⁾...

(2) إسماعيل صدقي هو المقصود بمن "يبني الكورنيش ويسفك الدماء"، وعندما يتقابل الراوى مع الدكتور عقل في الإسكندرية ويعود الدكتور إلى الحديث عن بناء الكورنيش الذي سيغير وجه الإسكندرية، يعقب الراوى في سخط وغضب:

– ليس بالكورنيش وحده يحيا الإنسان. إسماعيل صدقي، الذى تحالف الدكتور عقل مع حكومته، هو الأكثّر تعبيراً عن الشر والعداء للشعب في عالم نجيب محفوظ. لمزيد من التفاصيل راجع دراستنا "معجم أعلام نجيب محفوظ.. دراسة تحليلية"، دار الأحمدي، ط2، 1998. ص ص 48-54.

إبراهيم عقل

لا يعلق الدكتور إلا بقوله:

— ليس كالسياسة مفسدة للعقل...

وعندما ينتقل الدكتور إبراهيم إلى الحديث مع طلابه عن المستقبل الذى يبدو لهم متجهما، فإنه يبرهن على أنه لا يعيش فى الواقع الذى يكتونون بنيرانه. فهو يبشرهم بطريق الحقيقة والقيم، ويدعوهم إلى التخفيف من غلواء الطموح الدنيوى والرضا من الدنيا بما تجود به، أما الشوق للحقيقة فلا ترسموا له حداً!

وكأنما يتفنن الدكتور فى تعذيب طلابه عندما يقول لهم:

— إن الجلوس تحت شجرة فى يوم صاف خير من امتلاك عربة.

وخلال تعاقب هذه النصائح الفلسفية المطلقة، يفكر الطلبة فى أستاذهم على نحو مختلف. وبعد مغادرتهم للكلية يستبقون إلى نعتة بكل قبيح:

— الوغد.

— المهرج.

— الدجال.

ليست المسألة فى الموقف السياسى الذى يهمل الأغلبية الشعبية وينحاز إلى الأقلية المتسلطة فحسب، ولكنها أيضاً فى الرؤية الاجتماعية الانعزالية القاصرة. أى معنى للتبشير بالحقيقة والقيم فى ظل واقع ضاغط متجههم كئيب لا يتيح للروح أن تزدهر وترضى؟! وقد يكون إبراهيم عقل متوافقاً مع نفسه وصادقاً فيما يدعو إليه ويبشر به، ولكنه لا يرى تفاعلات الحياة ومعاناة الأحياء الذين يكابدون وينفسون عن غضبهم الدفين بالاستتباب إلى نعتة بكل قبيح من الصفات!

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

وفي هذا الإطار يمكننا أن نفهم السر في انحياز الراوى إلى زميله عجلان ثابت، الذى فصل من الجامعة بعد اتهامه بسرقة طربوش، ويراه أفضل من الدكتور إبراهيم عقل.

إذا كان عجلان لصا مدفوعا إلى السرقة بالفقر والاحتياج، فإن الدكتور إبراهيم - على نحو ما - سارق لأحلام تلاميذه دون مبرر يشفع له !.

ومن المنطقي أن يعتمد الدكتور عقل فى عمله الإدارى بالجامعة على الموظفين "المشبهين" والمكروهين فى الأوساط الطلابية مثل عدلى المؤذن: كانت علاقته بالدكتور إبراهيم عقل وثيقة، ولما ولى الدكتور منصبه الخطير نتيجة لتقربه من السراى اعتمد فى إدارته على عدلى المؤذن. وهو الذى قدمه إلى أحد الوزراء قبيل الحرب العظمى الثانية فنقله الوزير إلى وزارته مفسحاً لطموحه مجالا جديداً أحفل بالفرص من إدارة الجامعة.

وعلى هذا مكروه كإبليس، وعند موته يتخلى الموظفون عن التقاليد المرعية مظهرين الشماتة والفرح، وكانت جنازته فقيرة لم يشارك فيها من ذوى الشأن إلا إبراهيم عقل نفسه بعد أن ترك الجامعة وتفرغ للدروشة !.

ومن المنطقي أيضا أن يظهر الدكتور عقل - الإدارى - كأداة إرهاب وتخويف للطلاب، فإذا يحتك بعضهم بزميلهم محمود درويش متوهمين أنه عميل لأجهزة الأمن، يستندعيهم إبراهيم عقل إلى مكتبه ويهددهم - إذا عادوا - بإبلاغ أمرهم إلى الجهات المختصة.

ومن المنطقي كذلك أن يبدو الدكتور عقل منحازاً إلى القيم التقليدية والصرامة الأخلاقية كما يتجلى فى موقفه من طالبة الفاتنة سعاد وهبى التى أثارت بجمالها وخفتها وتحررها مشاعر الطلاب واهتمامهم: وسرت عدوى

إبراهيم عقل

اهتمامهم إلى الدكتور إبراهيم عقل الذى يفرض بقامته المديدة رعاية أبوية على الطلبة والمثل العليا معاً. وانتهاز فرصة اضطراب قاعة المحاضرات لارتجاج الثديين النافرين وجعل يسلط سحر عينيه الزرقاوين على الجميع حتى تابوا إلى الرشد والسكينة، ثم قال :

- يجب أن يوجد فرق هائل بين قاعة المحاضرات بجامعتنا وبين صالة بديعة !.

فضجت القاعة بالضحك فى غير موضعه..

ثم وهو يهز رأسه بطربوشه الطويل :

- تذكروا أننا جميعاً - نساء ورجالاً - هدف لمجهر الناقدین وأن جمهرة منهم لم تسلم يعد بمبدأ اختلاط الجنسين فى الجامعة، بل بمبدأ تعليم الفتاة تعليماً عالياً..

وفى نهاية المحاضرة استدعى سعاد وهبى لمقابلته فى حجرته. وخبنا موضوع الحديث وتنبأنا بنتيجته المحتومة. وكثيرون شعروا بالأسف لحرمانهم الوشيك من الإثارة اليومية الفاتنة. وغادرت سعاد وهبى حجرة الدكتور متجهة الوجه. ولما رأت جموع المنتظرين فى الخارج قالت بحدة وبصوت مسموع متحد :

- لن أسمح لأحد بمصادرة حريتي الشخصية..

وأصرت على التمتع بحريتها حتى فوجئنا بصدور أمر بفصلها من الكلية !

كيف يمكن تقييم موقف الدكتور عقل من سعاد وهبى؟. من الممكن أن يكون التوقف عند الوجه الأخلاقى المتزمت والتدخل السافر فى "الحرية

أستاذ الجامعة في عالم غيب محفوظ

الشخصية" لسعاد، ومن الممكن أن تكون الأهمية للرؤية الموضوعية التي يطرحها الرجل عن المجتمع الذي لم يقتنع بعد باختلاط الجنسين وحق الفتاة في التعليم العالي.

الرغبة في إدانة إبراهيم عقل هي التي تعلى من شأن " الاضطهاد" الذي تتعرض له سعاد، أما النظرة المعتدلة فهي التي تجد في منطق الدكتور ما يستحق الاهتمام. لقد دفع شخصياً ثمن "استفزاز" المجتمع وتقاليده ومشاعره، ومن هنا حرصه - الذي قد يوصف بالرجعية والتزمت - على الاعتدال والمهادنة والتطور البطيء المأمون.

قد يكون لتلاميذ إبراهيم عقل - ومنهم الراوى - رأيهم الحاد في محاضرات وحيوية أستاذهم ، وقد يكون لهم رأيهم المعارض لما يرونه انتهازية سياسية في سلوكه وممارساته، ولكن هذا لا ينفي أن للرجل من الأفكار والرؤى ما يستحق التأمل والتحليل.

إذا كان الراوى يأخذ على أستاذه عزوفه عن تأليف الكتب، فإن لإبراهيم عقل منطقه الذي لا يخلو من الوجهة. وثمة حوار مهم يبدأ بسؤال من الراوى لأستاذه:

- لم لم تؤلف كتابا يا دكتور؟

ويجيب الدكتور بصوته الجهورى وهو يرمى سائله بنظرة متعالية:

- أنتظن أن عالم الكتب في حاجة إلى مزيد؟

وجعل يهز رأسه الكبير فوق قامته المديدة ثم قال:

- لو فرشنا بالكتب سطح الأرض لغطته مرتين.

إبراهيم عقل

ثم بامتعاظ وازدراء:

- ومع ذلك فلو عددنا الكتب المتضمنة جديداً من الفكر لما غطت سطح زقاق.
ليس المقياس عنده أن تؤلف كتاباً، فما أكثر الكتب عديمة الجدوى،
ولكن المهم هو الجديد الجاد الذى يضيف. ولعل فى امتناعه عن التأليف
- الذى يراه تلاميذه سلبية وقصوراً - ما يعبر عن رؤية متماسكة ذات جذور.
وإذا كان الدكتور عقل متهماً فى ممارساته السياسية بالانتهازية
والوصولية، فإنه يؤمن بجملة من الأفكار التى تستحق الاحترام وتنم عن
توهج وعمق إذا تم التعامل معها بموضوعية وإنصاف بعيداً عن التعصب
والأحكام سابقة التجهيز.

من الآراء السياسية المهمة للدكتور عقل، قوله معقباً على الانقلاب
الدستورى لإسماعيل صدقى:

- إن حياتنا الدستورية مكسب ولكنها فى الوقت نفسه فخ.
ويشرح تلك المقولة موضحاً:

- انحرف الجهاد الوطنى عن غايته الأولى، غرقنا فى معاركنا الحزبية،
ولدى كل انقلاب يحدث رد فعل فظيع فى العلاقات والأخلاق، ويوماً
بعد يوم يتفتت البناء الشامخ الذى ورثناه عن ثورة 1919.

وفى سياق آخر يقول إن الاستقلال الحقيقى فى المثل العليا وبنك مصر.

ومن المقولات المهمة التى تتكرر كثيراً على لسان الدكتور عقل: لا
يوجد مثل السياسة مفسدة للتفكير البشرى.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

من المقتبسات السابقة يتشكل فكر سياسى متماسك للدكتور عقل، وعلى ضوءه يمكن استيعاب الموقف الموصوف بالانتهازية الذى اتخذه.

السياسة بشكلها العاطفى الغوغائى مفسدة للتفكير، والاستقلال الحقيقى عنده يتمثل فى الاقتصاد القوى "بنك مصر" والقيم الأخلاقية "المثل العليا"، أما الواقع السياسى المصرى فمتهرئ منحرف عن رسالة ثورة 1919 التى ينتمى إليها الجميع أو يدعون الانتماء إليها. ولذلك كله قد يكون دفاعه مبرراً عندما يميز بين من يخطبون ومن يعملون، وعندما يختار الانضمام إلى من يتصور أنهم يعملون! . ولكن السياسة - فى النهاية - مفسدة كما يعلق على ما يقوله اسحق بقطر! .

وقد يكون إبراهيم عقل - من منظور طلبته - محافظاً رجعيّاً متمزناً، ولكنه متوافق مع نفسه فى تبشيره بالمثل العليا التى يعتبرها طوق النجاة والخلاص. ليس المهم أن نوافقه على دعوته، فالمهم أن نتعامل معها على أنها صادرة عن إيمان واقتناع.

فى محاضراته عن الأخلاق لم يكن الدكتور إبراهيم يكف عن المطالبة بالمثل العليا، وهو يلح فى ذلك إلى الدرجة التى تدفع أحد تلاميذه إلى أن يسميه ساخراً "دكتور مثل عليا". وهذا المطلب لا يرتبط عنده بالعقيدة الدينية: أرجو ألا تعتبروا المثل العليا نتيجة لعقيدة دينية، اعتبروها إذا شئتم المنبع الذى تتدفق منه العقيدة نفسها.

"المثل العليا" التى ينادى بها إبراهيم عقل تختلف جذرياً عن الأفكار المادية التى يبشر بها مفكر مثل سالم جبر، وإذ يجد فى تلميذه الراوى ميلاً لترديد بعض آراء سالم الثورية المتطرفة، فإنه يحذره من الفلسفة

إبراهيم عقل

الكاذبة. ويرد الراوى مأخوذاً بما يسمع :

– الحق أنى أول ما سمعت عنكم كان لدى قراءة مقال له يدافع فيه عنكم !

فقال ساخراً :

– لم يكن دفاعاً ولكن كان إحراجاً. فهو لا يرضى عن مفكر إلا إذا اشهر
إحاده أو فوضويته..

إنه ليس ملحداً – كما اتهم – وليس فوضوياً، وعنده نظرية خاصة
يجابه بها سالم جبر عندما يشكو من احتقار الفرنسيين لمصر بسبب سوء حال
الشعب: إنك تزور في فرنسا أوساطا متطرفة لعلها تضر نفس الاحتقار
لفرنسا أيضاً، على أن الإنسان لا تتقرر حاله الحضارية بما يملك ولكن بما
ينبض به فكره وقلبه، وأنا شخصياً أعتبر الفقير الهندى أجل إنسانية من
فورد أو روكفلر!.

واحتد سالم جبر فاتهمه بالثألية الرجعية، كما اتهمه بالصوفية
التي يعدها مسئولة عن تأخر الشرق.

إبراهيم عقل إذن متهم من المحافظين بالكفر والتعلق بأذيال
المبشرين، وهو فى الوقت نفسه متهم من الثوريين بالثألية الرجعية
والصوفية! الفقير الهندى عنده أجل إنسانية من أصحاب المليارات، وهو
القائل من قبل أن الجلوس تحت شجرة فى يوم صاف خير من امتلاك عربة!.
هذه هى أفكاره بمعزل عن الاتفاق أو الاختلاف معها، وهى أفكار راسخة فى
أعماقه ولا علاقة لها بالانتهازية والرغبة فى الصعود الوظيفى.

السياسة مفسدة، ولا ينبغى لها أن تهمل وتهدد الجانب الإنسانى

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

الموجود بالضرورة في أى وكل إنسان. وفي هذا المستوى يتجلى إبراهيم عقل أبا عطوفاً حنوناً كما عاين ذلك الراوى نفسه فى لقاء مع أستاذه بالإسكندرية: ولاحظت بسرور غرامه الأبوى بابنيه وملاطفاته لهما مما دعا زوجه لإعلان استنكارها لتدليله لهما. واستمالنى لأول مرة بعواطفه الأبوية.

وكان هذان الابنان نقطة تحول فى حياة إبراهيم عقل: فقد ابنيه الوحيدين فى وباء الكوليرا الذى اجتاح البلاد عام 1947.

وسار الرجل وراء النعشين بقامته الطويلة وقد تهدلت عضلات وجهه وغامت عيناه بظلمة كأنها صورة ناطقة لليأس الأعمى. ولم يهتم بشيء مما يدور حوله، ولكن عندما تقدم الدكتور ماهر عبد الكريم لتعزيته خفض جفنيه على دمع تفجر رغم إصراره على الظهور بمظهر الثبات والصبر.

وبعد سنوات طويلة من موت الابنين وموت الدكتور عقل نفسه، يقدم ضابط البوليس السياسى المتقاعد أحمد قدرى تفسيراً جديداً لموتهما. فهو يقول لقريبه الراوى:

– رئيسى رحمه الله همس لى يوماً فى مجلس صداقة حميمة بأنهما قتلا!

– قتلا!

– اضبط أعصابك، ذاك تاريخ مضى وانقضى..

– ولكن كيف قتلا ومن الذى قتلتهما؟!

– لا شئ مؤكد، صدقنى لا شئ مؤكد، حتى رئيسى نفسه لم يكن لديه أكثر من همس، تسلل إليه خبر عن غرام وامرأة هامة وشخص من رجال الملك وجريمة قتل فى بيت خلوى بالطريق الصحراوى..

إبراهيم عقل

ماتا بالكوليرا كما هو الشائع المعلن أم قتلًا بمعرفة السراى
ورجالها؟! المهم أنهما ماتا وأماتا معهما صمود الأب وقدرته على
المقاومة.

بعد الموت الأسوى الفاجع تتغير شخصية الدكتور ويصل إلى محطة
الدروشة والانعزال الكامل عن العالم، وهذا التغيير يلاحظه - مبكراً -
صديق العمر الدكتور ماهر عبد الكريم الذى لا يخفى قلقه على صديقه الأثير
وينقل مخاوفه إلى تلميذه الراوى: جعل يقول بنبرة متهدجة إن الموت
جميل، وأنه مظلوم وأنه لولاه لما كانت للحياة قيمة..

وصح ما توقعه الدكتور ماهر وتخوف منه، فقد تبدلت أحوال
الدكتور إبراهيم فى الأعوام التالية للحادث: قيل إنه أصبح يرى كثيراً فى
جامع الحسين. وأنه يمضى الساعات متربّعاً أمام المقام. وفى كلمة انه
يتدروش ويسلم للإيمان تسليماً بلا قيد ولا شرط.

وفى عام 1950 ترك الدكتور إبراهيم عقل الخدمة لبلوغه السن
القانونية فتفرغ تماماً للدروشة.

هذه الدروشة تمنعه عن متابعة مسيرة الراوى عندما تقابلا مصادفة
سنة 1953 معتذراً بأنه لا يقرأ، وهذه الدروشة هى التى تبعده عن متابعة
الحياة السياسية فى مصر بعد ثورة 1952 مكتفياً بالقول الذى يعكس زهده:
هبوط صعود، موت بعث، مدنى عسكرى: فلتسر الدنيا فى طريقها أما أنا
فإنى أستعد لرحلة أخرى.

ويموت الدكتور إبراهيم عقل سنة 1957.

_____ أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

لقد تحولت دروشة إبراهيم عقل في سنواته الأخيرة إلى نموذج يستدعى ويُضرب به المثل.

بعد حريق القاهرة سنة 1952 وإقالة حكومة الوفد، لا يجد الدكتور زهير كامل ما يعبر به عن إحساسه بالمناخ السائد إلا أن يقول: ما أشبه حالنا السياسي بالدكتور إبراهيم عقل الذى بدأ باحثاً نابهاً وانتهى بالدروشة.

وبعد أن قضت ثورة يوليو على الوفد وجيل كامل من السياسيين الذين لم تتسع لهم الحياة الجديدة، يعود الدكتور زهير إلى تذكر الدكتور إبراهيم عقل وحالة الدروشة التى أصابته:

– على ذلك الجيل من السياسيين أن يتخذ من أستاذنا القديم إبراهيم عقل مثلاً يُحتذى..

ويدهش الراوى للاستدعاء المباغت فيقول معقّباً:

– الدكتور إبراهيم عقل يعانى حالة دروشة كاملة وقد لمست ذلك بنفسى فى لقاء عابر معه بحى سيدنا الحسين!

ولم يكن الأمر خافياً على زهير كامل وهو يضرب المثل:

– هذا ما أعنيه تماماً، فالدروشة هنا أسلوب لمواجهة الكوليرا التى قضت على ابنه..

إبراهيم عقل لا يملك إلا الدروشة سلاحاً لمواجهة الموت والكوليرا، وعلى الجيل الوفدى المهزوم الذى لا يملك القوة الكافية لمواجهة ضباط يوليو أن يلجأ إلى الدروشة السياسية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه!

إبراهيم عقل

لم يخلق إبراهيم عقل كاتباً كما يقول عنه صديقه ماهر عبد الكريم، وهو - بتعبير الراوى - أستاذ بلا تلاميذ ولا مريرين. السؤال الذى يبذو طرحه ضرورياً: هل تبخر إبراهيم عقل بعد موته ولم يبق منه شئ؟! الإجابة نجدها فى الأثر الوحيد الذى خلفه بعد موته، إذ عثر ابن أخيه على مخطوط له لترجمة غاية فى الجمال لديوان "أزهار الشر" لبودليير لم يعرف بالضبط تاريخ ترجمته. وهكذا بقى اسمه فى المكتبة العربية مقرونا باسم بودليير على ديوان "أزهار الشر".

أهى صدفه أن تكون الترجمة الوحيدة لإبراهيم عقل هى ديوان "أزهار الشر" للشاعر الفرنسى الرجيم بودليير؟!.

فى السنة التى مات فيها إبراهيم عقل - 1957 - كان محمد أمين حسونة قد انتهى من ترجمة "أزهار الشر" إلى اللغة العربية⁽³⁾، ولا يتسع المجال هنا للحديث عن شعر بودليير وما فيه من رؤى فكرية وقيم جمالية⁽⁴⁾، ولكن الالتفات ضرورى إلى أن شعره يمثل الصراع بين الخير والشر، بين قدرة الإنسان وفكرة العدم الماثلة أمامه.

وإذا نحنا بودليير وديوانه جانباً، فإن حياة إبراهيم عقل تمثل بدورها صراعاً بين الخير والشر، بين قدرة الإنسان المحدودة وفكرة العدم التى تطارده وتهدهه!.

(3) أعيد نشر ترجمة حسونة فى سلسلة "آفاق الترجمة"، العدد الثامن، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، فبراير 1996.

(4) راجع - بالعربية - على سبيل المثال: عبد الرحمن صدقى: الشاعر الرجيم بودليير، دار المعارف، سلسلة اقرأ، العدد السابع، ط2، د.ت.

الفصل الثانى



زهير كامل

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

ليبقى مثل الدكتور زهير كامل في التعبير عن الفساد والانتهازية والسلوك المعوج المسيطر على أفعال الشخصية التي عملت فترة طويلة في الجامعة قبل أن تتفرغ للمتاجرة في السياسة والنقد الأدبي مقدمة مثلاً بالغ الرداءة للانحطاط والإسفاف.

عندما التحق الراوي بالجامعة كان زهير كامل معيداً بقسم اللغة العربية تمهيداً لإرساله في بعثة إلى فرنسا: وسمعنا عنه ثناء طيباً من الدكتورين ماهر عبد الكريم وإبراهيم عقل فقال الأخير عنه مرة:

– إنه مثال للفلاح إذا نبغ.

وحدثني رضا حمادة عنه فقال:

– عرفته في بيت الأمة خلال اجتماعات الطلبة وهو من سمود ويعرف مصطفى النحاس معرفة شخصية.

زهير كامل

شاب ناجح علمياً وينتمى إلى حزب الأغلبية الشعبية، وهو فى الجامعة والسياسة معا يبشر بمستقبل طيب كما تدل على ذلك شهادة أستاذه إبراهيم عقل ومعرفته الشخصية بالزعيم الجليل مصطفى النحاس. البداية تنبئ بالخير، والرحلة تستمر فى استواء لا نشاز فيه: وسافر فى البعثة عام 1932 ثم رجع دكتوراً عام 1939 فعين مدرس "ب" بهيئة التدريس الجامعية. وفيما بين تاريخ تعيينه وعام 1950 تركز نشاطه الفكرى فى الجامعة والتأليف، فأصدر كتبه المعروفة عن نظريات النقد العامة، ونقاد من الشرق والغرب، ودراساته عن شكسبير وراسين وبودليير واليوت والشعراء الأندلسيين. وكان يتردد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فتوطدت بيننا صداقة متينة، وتزوج فى أثناء الحرب من فتاة يونانية كانت تعمل فى محل فينوس فأنجب منها ولدين وبناتاً. وكان أستاذاً جامعياً بالمعنى الدقيق، يكرس حياته للبحوث الأكاديمية، ولا حديث له خارج مضامينها، فلم أعرف له اهتماماً عاماً آخر. وحاولت أحياناً أن أستشف فيه الطالب الوفدى القديم فلم أفلح.

تغير منطقتى طفيف ينم عن التطور والتقدم لا الانقلاب والتراجع. وليست كتبه التى تعكس نشاطه، وانكبابه على العمل الجامعى بإخلاص، والشروع فى بناء اسرة؛ ليس هذا كله إلا بمثابة الامتداد لبدايته. بل إن اعتزاله للسياسة وابتعاده عن الوفد يبدو مبرراً وطبيعياً لأنه قد لا يستطيع الجمع بين العلم والسياسة.

ينتهى التوافق سنة 1950 لتبدأ حياة جديدة مختلفة جذرياً عما كان: وفى عام 1950 فاجأنا بما لم نتوقع أبداً. فرشح نفسه على مبادئ الوفد

_____ أستاذ الجامعة في عالم غيب محفوظ

في إحدى دوائر القاهرة وفاز بأغلبية ساحقة، وأثار سلوكه تساؤلات كثيرة ولكن الدكتور ماهر عبد الكريم قال رغم تحفظه الشديد:

- إنه قرار يستحق الأسف.

ما الذى يدفع أستاذا جامعياً ناجحاً إلى المغامرة بالوظيفة الجامعية المحترمة المضمونة فى سبيل منصب نيابى لا يمنح إلا مكافأة ضئيلة متواضعة لا ضمان لاستمرارها ؟!

الترشيح على مبادئ الوفد ليس تهمة لوفدى قديم، والسعى إلى تمثيل الشعب ليس مداناً، بل إن اللجوء إلى كتابة المقالات السياسية فى الصحف الوفدية والدراسات النقدية التى تمثل استمراراً لتخصصه العلمى الذى هجره، هذه الكتابة ليست إلا وسيلة شريفة مشروعة على المستويين المادى والمعنوى.

الانحراف الحقيقى يتمثل فى الهمسات التى تتردد وتكشف عن سلوك لا يليق بأستاذ جامعى سابق ونائب عن حزب شعبى، ولا يجد الراوى إلا النائب الوفدى المخلص رضا حمادة ليسأله:

- ما رأيك فيما يقال عن زهير كامل؟

وتأتى الإجابة مصحوبة بامتعاض شديد:

- يقال إنه أصبح سمسار وظائف..

لا يقدم الراوى - ولا يملك - تفسيراً مقبولاً للتغيير الذى طرأ على الدكتور زهير وأحاله إلى كائن جديد، وغاية ما يستطيعه هو اللجوء من جديد إلى رضا حمادة ليسأل ويتساءل فى حيرة:

زهير كامل

- ولكن هل تتصور أن زهير كامل نبذ الأستاذية فى الجامعة ليمارس النهب والفساد؟

ويتطوع رضا بطرح تصويره الخاص الذى لا يملك دليلا عليه :

- إنى أتصوره وغدا من البدء غير أنه كان يتحين فرصة لاستغلال مواهبه حتى وجدها فى السياسة..

الراوى لا "يتصور" أن تُنبذ أستاذية الجامعة فى سبيل النهب والفساد، ورضا حمادة لا "يتصور" الرجل إلا منحرفاً منذ البدء، وكلاهما لا يقدم إلا "تصوراً" لا يمكن الركون إليه والاعتماد عليه. ذلك أن حياة الدكتور زهير حتى سنة 1950 لا تكشف عن بذور وجذور الانقلاب المباغت!.

وتبرهن الأحداث على حماسة الدكتور وتسارعه فى قراره بالتخلي عن الجامعة، فقد احترقت القاهرة وأقيلت حكومة الوفد وسقط البرلمان الذى ينتمى إليه: ولما أقيلت حكومة الوفد عقب حريق القاهرة حاول الدكتور زهير الرجوع إلى الجامعة ولكنه لم يفلح. وواصل حياته ككاتب سياسى وناقد ولكنه بات ينظر إلى المستقبل بقلق وبخاصة وأنه كان اعتاد مستوى من المعيشة الرفيعة.

فشلت محاولة العودة إلى الجامعة حيث الأمان والاستقرار، ولم يعد أمام زهير كامل إلا مواصلة العمل فى السياسة والصحافة دون شعور بالثقة فى المستقبل. وليس من سبيل لاستعادة الأمل إلا المراهنة على حتمية عودة الوفد، وعلى هذا الأمل يراهن زهير: ما زال الوفد أفضل الجميع وسيضطر الملك إلى استدعائه عاجلاً اتقاء لانفجار ثورة شاملة!.

ولكن أزمة زهير كامل تزداد تعقيداً بقيام ثورة 23 يوليو التى

أستاذ الجامعة في عالم غيب محفوظ

نسفت العهد القديم كله، ملكاً وحزباً ونظاماً برلمانياً: وسرعان ما وجد نفسه في مأزق لم يعمل له حساباً. أغلقت دونه أبواب السياسة والجامعة وتحير ماذا يفعل وماذا يكتب.

لم تستمر الحيرة طويلاً، ففي انتهازية سافرة فاجرة خلع زهير كامل ثوبه القديم وانقلب ليهاجم حزبه متنصلاً من تاريخه القريب: انقض بمقالات من نار على الوفد مرجعاً إلى فساد كل فساد نخر في عظام الوطن. وأثارت المقالات عاصفة من الغضب المكتوم في صدور الوفديين ولكن أحداً لم يستطيع أن يقتل من خطورتها لصدورها من رجل له تاريخه الجامعي الوقور فضلاً عن اشتراكه في برلمان الوفد الأخير، وتعين صحفياً في إحدى الجرائد الكبرى، وسرعان ما اعتبر قلمه من أقلام الثورة، كما عهد إليه بتحرير صفحتها الأدبية فقاد نقد الأدب المعاصر. وبسبب مسؤولياته الجديدة، وربما خجلاً من انقلابه المفاجئ تجنب إلى حين التردد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم. وتساءل الدكتور ماهر:

– ألم يكن الأفضل له أن يبقى في الجامعة؟

وتساءل الأستاذ رضا حمادة:

– أرايت ماذا فعل الوفد بنفسه؟

قبل أيام من ثورة يوليو كان الدكتور زهير يؤكد أن الوفد أفضل الجميع وعودته حتمية لاتقاء الثورة، وعندما خابت المراهنة لا يجد حرجاً في اللحاق بالركب الجديد على حساب انتمائه الحزبي. كيف لا ترحب الثورة بأستاذ جامعي محسوب على الوفد وهو يتطوع بالانقلاب العنيف على النظام الذي هدمته؟!.

زهير كامل

هكذا تتم الصفقة بين الطرفين ولا خسائر عند زهير إلا الانقلاب
النفسي والانقطاع المؤقت عن عالمه القديم الذى يتمثل فى صالون الدكتور ماهر
عبد الكريم المشفق على تلميذه والمتحسّر - بعد كل ما حدث - على تركه
للجامعة واختياره للسياسة المتقلبة والانتهازية الدائمة.

يتخلص زهير من خجله ويعود إلى صالون أستاذه، ويجد القدرة
على تبرير موقفه لصديقه الراوى الذى يشاركه فى الانتماء الوفدى ولا يماثله
فى السلوك الانتهازى الفج:

- لم تكن ثمة جدوى من المقاومة، ولم أقاوم؟

وقال أيضاً:

- كنت على وشك الإفلاس، ولكن لم يكن المال وحده هو الدافع فأنا
مطمئن الضمير!

وهنا يتساءل الراوى:

- إذن فأنت تؤمن بثورة يوليو؟

ويرد الدكتور:

- إنها حركة مباركة منعت بقوتها الذاتية اشتعال ثورة لاحت
مخالبها فى الأفق!

ثم يواصل دفاعه وتبريره:

- وأعترف لك بأننى لست ثورياً، فكما لا أوافق على رجعية الإخوان
فإنى لا أوافق أيضاً على ثورية الشيوعيين، وأؤمن بالإصلاح الرزين الذى

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

نتأثر خطاه، وهو طريق الوفد أيضا لو قيض لجناح شبابه أن ينتصر..

لا جدوى من المقاومة ولا بد من الاستسلام ومسايرة العهد الجديد،
ويأبى زهير كامل التسليم بأن دوافعه ذاتية انتهازية خالصة فيضيف إليها
بعداً فكرياً سياسياً يجلب له راحة الضمير! إذا لم يكن بد من سقوط الوفد
والنظام القديم كله، فإن ثورة يوليو هي البديل الذى يمثل امتداداً للوفد لا
انقطاعاً عنه. البدائل الأخرى مكروهة مرفوضة: الإخوان المسلمون
والشيوعيون، فكأن ثورة يوليو هي "أهون" البدائل⁽¹⁾.

وعلى الرغم من انتهازية زهير كامل التى لا تحتل التأويل، فإن
حنيئه لا ينقطع للوفد. وهو يعترف للراوى بما يدور فى أعماقه:

— ألم يكن الأفضل أن يتم ما تم بيد انتفاضة شعبية بقيادة شباب الوفد!

ويرد الراوى:

— المهم أن يتم ما تم.

فقال بعد تأمل:

— ولكن الإنسان لا يستطيع التخلص من عقليته الخاصة ولذلك فقل على

الحرية السلام!

(1) قد يكون مفيداً هنا أن نشير إلى أن نجيب محفوظ نفسه — فى عموم
عالمه الروائى — لا يرى تناقضاً جذرياً بين الوفد وثورة يوليو،
والقراءة المتأنية لأعماله تكشف عن شعوره بالحسرة والمرارة لغيباب
التعاون بين الوفد وضباط يوليو. المزيد من التفاصيل فى الفصل الذى
يحمل عنوان "الوفد وثورة 23 يوليو" فى دراستنا عن "الرؤية الوفدية فى
أدب نجيب محفوظ".

زهير كامل

لو تم ما تم بمعرفة شباب الوفد لاستمرت الحرية، أما الضباط فقد ذهبوا بالحرية والوفد معاً! وفي هذا السياق الذي يسبر الانهزامية والانتهازية يمكننا أن نفهم سر استدعاء زهير كامل لأستاذه إبراهيم عقل الذي جذبه الدروشة بعد موت ابنه، فهو يراه نموذجاً ومثلاً يُحتذى به! الدروشة عند زهير أسلوب لمواجهة ما تستحيل مقاومته: إذا صادفتك كارثة يستحيل التغلب عليها فعليك بالدروشة، أي نوع من الدروشة، أما المقاومة غير المجدية فترمى بك إلى المعتقل!.

لم يتبخر الوفد من قلب زهير كامل على الرغم من الثورة الزائفة التي اتخذها مهنة، ويعلم الراوي أن الدكتور زهير حمل صديقاً رسالة خاصة إلى مصطفى النحاس يعتذر له فيها عما بدر منه في حقه، ويشرح له الظروف القاسية التي اكتنفت قراره.

ولا تتوقف انتهازية زهير عند الانتماء الشكلي لثورة يوليو والانقلاب الشرس على ما قبلها، إذ تتخذ الثورة سياسة اشتراكية يتحول الليبرالي القديم فجأة إلى دراسة الاشتراكية والإيمان بها: وفي أعوام قلائل متتابعة ترجم أربعة كتب عن الاشتراكية، ثم أصدر في النهاية مؤلفه المعروف "اشتراكية هذا الوطن".

والعلاقة الوثيقة بين الراوي وزهير كامل تقف حائلاً منيعاً أمام أي تصور عن صدق التوجه الاشتراكي الجديد لرجل موغل في إيمانه بالديموقراطية الليبرالية، وإذ يسأله الراوي ضاحكاً:

— كيف انقلبت اشتراكياً بهذه السرعة الجنونية؟

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

يجيب الدكتور زهير ضاحكا هو الآخر:

– الناس على دين أوطانهم.

ويعود الراوى ليسال:

– أعتقد أنهم يصدقونك؟

فيجيب بلا تردد أو تفكير:

– لم يعد أحد يصدق أحداً.

ثم قال والضحك يعاوده:

– المهم ما تقول وما تفعل.

واجتاحته موجة من الضحك ثم قال:

– يتساءلون كثيراً عن سر ازدهار المسرح، أتدرى ما هو سر ذلك؟، السر

أننا صرنا جميعاً ممثلين!

ليست المشكلة هنا في زهير كامل وحده، ولكنها أيضاً في المناخ الذي يتيح لأمثاله أن يوجهوا ويسودوا. لقد تحول الأمر إلى مسرحية هزلية ركيكة يعي الجميع فيها أنهم يمثلون ويخدعون ويكذبون، ولا يصدق أحد أحداً.

ولم يكن زهير كامل "الناقد" مختلفاً عن زهير كامل "السياسي"، فقد عانى الناقد انقلاباً شاملاً مماثلاً: فبكل استهانة مضى يتاجر بالنقد. مضى يتقبل الهدايا والنقود ويقيم الفن والفنانين تبعاً لذلك. وبازدهار الحركة المسرحية والإنتاج السينمائي تضاغت أرباحه فشيّد فيلته الأنيقة بالدقي واقتنى المرسيّدس.

زهير كامل

تجارة نقدية بعد التجارة السياسية، وكلا التجارتين تدر على الأستاذ الجامعي القديم أرباحا هائلة تمنحه حياة مادية يحيطها الجاه والنعيم بقدر ما تسلب من روحه كل توافق وصدق. ولأن الانهيار لا يعرف التوقف، والسقوط بلا نهاية دائما، فقد واصل الدكتور زهير مسلسل التردى والانهيار بتأليف كتاب عن "جاد أبو العلا" الذي تكشف "المرايا" في مواضع عديدة⁽²⁾ منها عن تفاهته وتهافته وادعائه: ومهما يكن الثمن الذي قبضه - قيل إنه طاقم تحف عربية وألف جنيه - فقد دل على أن صاحبي تمرغ في السقوط حتى فقد إحساس الحياء الذي يصاحبه، وصدق عبده البسيوني عندما قال يوما في حديث جرى لمناسبة الرسالة المذكورة:

- هذا كتاب لا يجرؤ على تأليفه إلا مومس!

زهير كامل يمارس الدعارة الفكرية، وتاريخه الجامعي القديم مجرد حلية يستعين بها لتحقيق مزيد من النجاح في الفساد والانتهازية. وكأنما يتحدث زهير عن نفسه وأمثاله من الفاسدين عندما يقول: الزيف في الحياة منتشر كالماء والهواء وهو السر الذي يجعل من باطن الإنسان حقيقة نادرة قد تخفى عن بصيرته في الوقت الذي تتجلى فيه لأعين الجميع.

ويواصل في نبرة تسليم يائسة: بت أعتقد أن الناس أوغاد لا خلاق

(2) يؤكد الراوى أنه لم يستطع أن يتم قراءة رواية واحدة لجاد، وأنه بلا موهبة تذكر⁶⁹.

ويعترف عبده البسيوني أنه كتب لجاد أغلب مسلسلاته الإذاعية والتلفزيونية⁷⁴.

أما عجلان ثابت فيصفه بالرجل الزائف⁷⁵.

وليس هذا إلا القليل من الكثير الذي يمكن أن يقال عن الرجل الذي ألف عنه الدكتور زهير رسالة كاملة!

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

لهم، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هي: كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية في مجتمع من الأوغاد والسفلة؟!.

أهو رثاء للذات أم توصيف للواقع؟! . أغلب الظن أن في مقولاته ما يحقق الغرضين! . الزيف في الحياة وفي أعماقه معاً، وليس دقيقاً أن المجتمع كله من الأوغاد والسفلة، فالصحيح أن الدكتور يتعامل من منطلقات لا أخلاقية تدفعه إلى التعميم الذي قد لا يخلو من الحكمة والصواب بقدر ما لا يخلو - في الوقت نفسه - من التطرف والخلل.

ولا ينجو زهير كامل في حياته الشخصية من ذلك المناخ الذي يراه سائداً ومحملاً بالزيف والفساد والانحلال.

في العام التالي للنكسة صمم ابنه المهندس على الهجرة إلى كندا، وهي هجرة تحزن الفلاح القابع في أعماق الدكتور زهير: أنا فلاح، ومن طبيعة الفلاح حبه لالتصاق أبنائه به.

وتستهين ابنته بكل التقاليد والأعراف فتتزوج من شاب يوناني، أما الزوجة فتستقر بصفة نهائية في موطنها الأصلي لتنفرد الوحدة بالرجل وهو في الستين من عمره مريضاً بالسكر والضغط.

ويحاول الدكتور أن يقاوم الوحدة والمرض بالزواج من الصحفية الشابة نعمات عارف التي لا تتجاوز العشرين، ولا تتورع الزوجة عن خيانتها مع الدكتور صادق عبد الحميد!.

يشرب الدكتور زهير - حتى الثمالة - من الكأس التي طالما وزع

زهير كامل

منها على الجميع ، ويزداد المرض فيلزمه الفراش متهيناً لرحلة الموت.
حياة حافلة بالشور والآثام إلى الدرجة التي تدفع شخصاً معتدلاً
مثل قدرى رزق إلى التعجب من أن رجلاً مثل رضا حمادة ورجلاً مثل زهير
كامل ينبئان من أرض واحدة!.

وثمة مقارنة مماثلة بين الرجلين يعقدها الراوى: أحدهما يحتوى
على طوية عفنة تتقزز منها الحشرات والآخر تستقر فى أعماقه روح نبيل
يستحق الفرد من أجله أن يقس ويعبد.

وإذا كان قدرى رزق والراوى لا يصارحان الدكتور زهير بحقيقة
رأيهم فيه، فإن سالم جبر لا يتورع عن المصارحة الجارحة عندما يقول له:
أنت لا تنقد ولكنك تقتل القيم.



← الفصل الثالث



سرور عبد الباقي

عندما انتقل الراوى - فى طفولته - من حيه الشعبى القديم إلى العباسية، بدأت علاقته الوثيقة مع مجموعة من الرفاق الذين صاحبوه فى رحلة العمر: جعفر خليل وسرور عبد الباقي وسيد شعير وعيد منصور ورضا حمادة وخليل زكى وشعراوى الفحام. وعند أول سؤال يطرحه سرور عبد الباقي على الوافد الجديد، يلاحظ الراوى الطفل أنه يختص بأدب يتميز به عن الآخرين.

ومن بداية التعارف إلى نهاية الرحلة الروائية، يتشبث سرور عبد الباقي بالمثالية التى نجد جذورها فى ذلك "الأدب" الذى لاحظته الراوى فى اللقاء الأول بينهما.

وفى سلوك وآراء سرور - خلال مرحلتى الطفولة والصبا - ما يكشف عن تدينه والتزامه الأخلاقى، فهو لا يجد ما يفسر به توتر العلاقة بين خليل زكى وأبيه إلا أن يقول: إن الله سلط عليه أباه كما سلط الطوفان على آل نوح!.

سرور عبد الباقي

ويأبى سرور إلا أن يتحقق الانتقام الإلهي من قاتل الطلبة عشناوى
جلال فيزعم أنه فقد البصر وعجز عن الحركة وأنه يتكتم ذلك حتى لا يشمت
الناس به.

وعندما يغرق الراوى فى قصة حب مجنونة مع صفاء الكتاب،
ينصحه سرور بما يكشف عن طبيعته العاقلة الرزينة: لا تستسلم وإلا جننت
كمجنون ليلي..

هذا التطهر الأخلاقى لا ينسجم مع أفراد الشلة الأكثر تحورا،
ويتمثل الخلاف فى صورة مشاجرة بين سرور و"الوقح" خليل زكى. على
الرغم من أن خليل لا يهتم بالغناء، فإنه يرفض ما يذهب إليه سرور من أن
صوت المطربة "الجديدة" أم كلثوم أحلى من صوت منيرة المهدية، وينتهره
بوقاحتة المعهودة:

— لا تردد آراء أمك بيننا!

وغضب سرور عبد الباقي وصاح به:

— لا شأن لك بأمرى يا قليل الأدب.

وجاء الرد فى صورة لكمة، ثم اشتبكا فى معركة حتى فصلنا بينهما .

وبسبب تطرف سرور فى المثالية الأخلاقية كادت شلة الأصدقاء أن
تنقسم وتتفرق مبكراً، فقد طالب بالتزام الأدب فى السلوك والكلام:

— يا جماعة .. يجب ألا تتردد بيننا كلمة بذيئة وأن نتعامل
باحترام.

_____ أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

وفي الحال شخر خليل زكى وسيد شعير في وقت واحد تقريباً، فعاد سرور يقول:

– وإلا سأضطر مقاطعتكم!

ويتدخل الراوى بجزع يكشف عن حبه لسرور:

– اقترح ما تشاء ولكن لا تفكر في المقاطعة..

وقال رضا حمادة:

– كلامه يستحق التقدير!

فقال جعفر خليل:

– البذاءة في الكلام كالملح في الطعام.

وقال عيه منصور:

– يا جماعة أنا لا أستطيع أن أذكر والد أحدكم أو أمه إلا إذا قرنته

بالسب المناسب.

وقال شعراوى الفحام محذراً:

– يا جماعة إذا خلت اجتماعاتنا من قلة الأدب فقل عليها السلام!

وتداولنا في الأمر باهتمام جدى ثم تم الاتفاق على مواصلة المعاملة

الحرّة فيما بيننا مع استثناء سرور عبد الباقي فيعامل معاملة مؤدبة خاصة.

رد الفعل الفورى من خليل وسيد على اقتراح سرور يكشف عن

الاختلاف والتفاوت بين أفراد المجموعة، وجزع الراوى ينم عن الحب

سرور عبد الباقي

والتمسك بصداقة سرور، واستثناء سرور يعبر عن خصوصيته التي لا يملك الآخرون إهدارها وتجاوزها.

ومثالية سرور ليست نظرية كلامية فحسب، بل هي سلوك عملي أيضاً. فإذا تستجيب المجموعة - بكامل أفرادها - لدعوة سيد شعير ويذهبون معه إلى حي الدعارة لأول مرة، فإنه الوحيد الذي يتخلف!

منذ البدء تتميز شخصية سرور الذي تغلب عليه نزعة أخلاقية متطهرة في أقواله وأفعاله، والبحث عن مكونات الشخصية يقود بالضرورة إلى أسرته وأسلوب تربيته: كان أبوه محامياً ذا شهرة ومال، وكانت أمه قوية الشخصية تحكم بيتها بسيطرة لا تقاوم يخضع لها الأب والابن والبنات. وكانت بخيلة فيما بدا. تساوم الباعة المتجولين بلا رحمة، ومن أجل ملهم واحد تلغى صفقة، وتزن مشترياتهما في ميزان خاص ابتاعته لذلك. وظهر أثر ذلك كله في سلوك سرور بيننا بالتهذيب والأدب والاقتصاد. وكانت علاقته بنا ذات نوع خاص، فهو لا يفارقنا، وهو لا يندمج فينا، ويتجنب مشاركتنا في مزاحنا الطليق ونكاتنا اللاأخلاقية.

الأم الصارمة قوية الشخصية هي صاحبة الدور الأكبر في تشكيل ملامح سرور، وهي المسؤولة عن سلوكه المختلف مقارنة بشلة الأصدقاء الذين يحتاجونه بقدر ما يعارضونه.

وعلى الرغم من اجتهاد سرور في الدراسة، فإن ذكائه موضع شك عند أقرانه: كان تلميذاً مجتهداً، ولكن نجاحه كان دائماً دون اجتهاده، والحق لم نكن نؤمن بذكائه!

وهو يختلف عنهم أيضاً في الانصراف الكامل عن السياسة والزهد

أستاذ الجامعة في عالم غيب محفوظ

في الثقافة : والأوقات التي كنا نخصصها للقراءة كان يقضيها في حديقة بيته
ممارساً هوايته في رعاية الزهور أو رفع الأثقال.

كانت دراسة الطب هي طموح سرور من فترة مبكرة، ولكنه لم
يتمكن من الحصول على مجموع يؤهله للالتحاق بكلية الطب: ولذلك أقنع
والديه بوجوب الالتحاق بكلية الطب في لندن، وكان المتبع أن تقبل الكلية
المصرية الطالب إذا نجح عامين في إنجلترا. وسافر إلى إنجلترا فدرس الطب
عامين بنجاح ثم رجع إلى مصر فالتحق بكلية الطب.

مثلما استطاع سرور أن يفرض على أصدقائه معاملته بشكل
مختلف، فإنه يفرض على أسرته أن تحقق حلمه. الإصرار إذن مفتاح مهم في
شخصية سرور الذي يفرض بإرادته ما يريد، وهو الإصرار الذي يتيح له أن
ينجح في إنجلترا بعد أن فشل في مصر. ويثير هذا النجاح مناقشة بين أفراد
الشلة تلقى مزيداً من الضوء على شخصية سرور من ناحية وعلى النظام
التعليمي في مصر من ناحية أخرى. يقول رضا حمادة :

– ليس سرور غبيا كما توهمنا وإلا ما نجح في إنجلترا!

ويضيف عيد منصور :

– وليس نظام القبول بكلية الطب المصرية سليماً كما يظن.

ويقول جعفر خليل :

– وليست الفرص متكافئة بين الأغنياء والفقراء!.

الشكوك تتبدد حول ذكاء سرور، ولكن الشكوك تتزايد بالنسبة
لنظم القبول بالجامعة المصرية ومدى العدالة المتوفرة فيها!.

سرور عبد الباقي

وتخرج سرور عبد الباقي في الكلية عام 1936، وتزوج بعد أربعة أعوام من فتاة من أسرة كبيرة، وتقدم في عمله عاما بعد عام حتى عد من كبار الجراحين في مصر، وربح من ذلك أموالاً طائلة فشيّد عمارة كبيرة في وسط المدينة وبنى لنفسه فيللاً غاية في الجمال بالمعادي، ولم يتخل يوماً عن مبادئه الأخلاقية حتى عرف بأخلاقه وإنسانيته كما عرف ببراعته. وهو طبيب مثالي، مهارة في العمل، وغيرة في العلم، ورحمة بالمرضى، وبعداً عن الجشع والاستغلال. وهو محبوب جداً من طلابه، وكثيراً ما خاض معارك حادة في مجلس الكلية بسبب مثاليته التي لا تعرف المهانة.

جراح ناجح، وزوج سعيد، وأستاذ جامعي مرموق، ومبادئ أخلاقية سامية، وشعبية تنبع من مثاليته ومهارته ورحمته؛ ولكن ذلك كله لا ينفي أنه بعيد عن المجتمع ومنعزل عن الواقع ومنصرف عن الثقافة والسياسة: وبالرغم من علمه الواسع وتجربته الفذة ظل طفلاً ساذجاً بالنسبة للثقافة والعقائد والسياسة ولم يأبَ نظرة شمولية للمجتمع الذي يتألق فيه كنجم من نجومه.

مع ثورة يوليو يهتز الاستقرار ويدب القلق. "سلبت" الثورة من ملكية أسرة زوجته خمسمائة فدان بجرة قلم، "وسلب" العهد الجديد حقه في عمادة كلية الطب وهو الأكفأ والأحق بالمنصب. امتلأت نفسه بالمرارة والحزن، وقال للراوى:

— فكرت طويلاً في الاستقالة للتفرغ لعيادتي الخاصة.

ثم قال بإخلاص يقدره الراوى ويؤمن به:

— ولكنى لا أحب أن أتخلى عن واجبي العلمى!

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

لم يستقل من الجامعة، ولكنه خرج - مضطرا - من عزلته ليراقب
تطور المجتمع الذى لم يهتم به يوما!.

بعد صفقة السلاح المشهورة مع تشيكوسلوفاكيا، جزع الدكتور سرور
وقال:

- هذه الخطوة الأولى نحو الشيوعية!

وبعد فشل العدوان الثلاثى يصر الدكتور سرور أن ينسب الفضل كله
إلى الولايات المتحدة الأمريكية دون الاتحاد السوفيتى، ويجاهر بالدعوة إلى
مصادقة أمريكا:

- يحسن بنا ألا نفرط فى الصداقة الأمريكية بعد اليوم.

أما القوانين الاشتراكية فتصيبه بالرعب حتى أن زوجته تنصحه
بالهجرة! وثمة حوار دال بين الدكتور سرور والراوى يكشف عن رؤيته
المعادية للاشتراكية وثورة يوليو معا، فهو يقول:

- الاشتراكية تعبير عن الحقد على المتفوقين.. وقد استولى حكامنا على
السلطة بقوة السلاح لا العلم..

وإن يسأله صديقه الراوى:

- وما رأيك فى مشكله الفقر فى مصر؟

يجيب بمساجلة:

- كل يتقرر موضعه على قدر طاقته وتلك هى حكمة الله سبحانه!

الانحياز للولايات المتحدة مبرر ومنطقى لأسباب اقتصادية

سرور عبد الباقي

اجتماعية وأيدلوجية، والعداء لثورة يوليو والاشتراكية يتوافق مع رجل لا يرى إلا نفسه ويرفض الانفتاح على الآخرين والإحساس بهمومهم. لا تناقص بين مواقفه هذه وأخلاقياته السامية، فهو مخلص فيما يعتقد، و "سذاجته" - بتعبير الراوى - ليست إلا منظومة فكرية متكاملة.

ولا يخفى الراوى جزعه لما أنس في صديقه المثالى من نبرة شماتة فى أعقاب هزيمة 1967. وشد ما جزعت عندما أنست فى نبرته شماتة عقب هزيمة 5 يونيه 1967: عندما لم يحسن مداراة فرحته بما ظنه النجاة.

ولكن الراوى نفسه لا ينكر أن الدكتور سرور عبد الباقي من الأخلاقيين الجديرين بالاحترام والتقدير، ويضعه فى خانة واحدة مع الوفدى الصلب رضا حمادة والماركسى المخلص كامل رمزى. مختلفون فى السياسة والعمل، وتجمعهم الشخصية الأخلاقية التى تتجاوز المعتقدات والمهن!



الفصل الرابع



عزمی شاکر

فى سالون الدكتور ماهر عبد الكريم - سنة 1960 - بدأت علاقة الراوى مع الدكتور عزمى شكرى. دكتور فى التاريخ من فرنسا، متزوج من مدرسة فى كلية العلوم، والانطباع الأول إيجابى: جذبنى بذكائه وثقافته وصراحته وأشعرنى تماماً بأنه من الناس الذين يأخذون الأمور مأخذ الجد، ويلتمسون السبل إلى الأمل.

الدكتور عزمى - كما يحكى عنه الفكر سالم جبر - بدأ حياته السياسية وفدياً ذا اهتمام بالمشكلات الاجتماعية، أما عزمى فينفى الانتماء الحقيقى إلى الوفد " التقليدى " ويقول للراوى معبراً عن هويته الحقيقية: لم تكن وفديتى قوية كالحال فى جيلكم، وتخلصت منها تماماً قبيل الثورة، ولكنى بقيت على صلة حميمة بالجنح الوفدى اليسارى، وعددت منذ ذلك الوقت من الشيوعيين وعرفت بذلك فى أوساطهم..

يقف عزمى إذن - قبل ثورة يوليو - على يسار الوفد قريباً من

عزى شاكِر

الطليعة الوفدية التى مزجت بين الأيمان بليبرالية الوفد الشعبية والتبشير
بالأفكار الاجتماعية التقدمية، وفى هذا السياق يبدو موقف الدكتور من
ثورة 23 يوليو مفهوماً ومبرراً: استقبلتها بترحاب وحذر معاً، أعجبت
بالغائها للنظام الملكى وبتحقيقها للجلاء، ولم أعجب كثيراً بإصلاحها
الزراعى، وسرعان ما اعتبرتها انقلاباً قصد به الإصلاح وتفادى الثورة
الحقيقية..

هل ينم هذا الموقف عن رؤية الطليعة الوفدية أم عن توجه فصيل
معين فى الحركة الشيوعية المصرية؟^١ مثل هذا التحليل الذى يجمع بين
الإعجاب والتحفظ، لا يروق للثورة التى فصلته من الجامعة واعتقلته. بعد
الإفراج عنه يتجه الدكتور عزى إلى العمل فى الصحافة مهتماً فى كتاباته
بالشئون الخارجية والتاريخية وهى الموضوعات التى تتيح له أن يعبر عن
حقيقة آرائه.

التغيير الحقيقى الذى يطراً على رؤية الدكتور من ثورة يوليو
يتحقق بعد توجهها الاشتراكى وصدور القوانين الاشتراكية فى يوليو 1961،
فهو يقول بعدها:

– الثورة هى أنسب حركة تاريخية لوطننا فى ظرفه الراهن.

ويطالب بتأييد الثورة دون تحفظ أو تردد:

– أجل، علينا أن نضع عقائدنا بين قوسين، وأن نؤيدها بكل قوانا^١.

وإذا كان هذا التغيير مقنعاً للراوى الذى لا يشك فى إخلاص صديقه
ولا يشكك فى نواياه، فإن الزملاء القدامى للدكتور يتعاملون بمنطق مختلف.

_____ أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

واحد منهم - عجلان ثابت - يرى أنه وغد لا أكثر ولا أقل، ومهما خطر فى لباس قديس!.

الراوى أكثر إيماناً بتحويلات الدكتور عزمى وأكثر يقيناً بصورها عن إخلاص حقيقى لا انتهازية فيه، ويسجل له أنه لم يكن مؤيداً أعمى أو متعامياً للثورة، فلم تكن تخفى عنه الأخطاء التى ترتكب. وكثيراً ما كان يردد:

- مما يؤسف له أن الثورة لم تعتمد على الثوريين الحقيقيين، فخلقت منهم أعداء حيناً، أو وضعتهم تحت المراقبة حيناً آخر.

وقال مرة بحزن شديد:

- إن الفساد ينتشر كالوباء، لا نملك إلا التحذير، وحتى ذلك لا يتيسر لنا إلا فيما ندر.

يأخذ الدكتور عزمى على ثورة يوليو ما ينفى عنه صفة التبعية والانقياد الأعمى، ويضعه الراوى فى خانة الشيوعيين المتجديدين. ولا يخفى عزمى حزنه عند القبض على الشيوعيين، وساوره قلق أشبه بتأنيب الضمير، ولكنه قال:

- إنه التعصب، والإيمان بالكتب أكثر من الواقع.

وكم اغتبط لدى الإفراج عنهم، واغتبط أكثر عندما علم بأنهم تبرأوا من الحزب الشيوعى، وعقدوا العزم على التعاون مع الثورة، وقال:

عزى شاكِر

– هاهم يرجعون إلى موقفى الذى اتهمت به عندهم⁽¹⁾.

هل يلعب "الشيوعى المتجدد" عزى شاكِر دور زرقاء اليمامة فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية؟ هل رأى قبلهم أم أنه أثر السلامة والمسألة؟ إذا كان الدكتور عزى يأخذ على الشيوعيين التقليديين تعصبهم وتعلقهم بالكتب والنظريات على حساب الواقع، فإن شيوعياً مخلصاً محترماً مثل الدكتور كامل رمزى يتعامل مع المسألة بمنطق مغاير. فبعد الإفراج عن الدكتور كامل وتعاونه مع الثورة فى إخلاص ينقصه الأيمان، يشير الراوى إلى عزى شاكِر قائلاً:

– ما أشبه موقفك بالموقف الذى اتخذه هذا الرجل من بادئ الأمر..

يضحك الدكتور كامل، ولكنه يقول بحدة:

– لقد سلم قبل المعركة، أما نحن فسلمنا بالأمر الواقع بعد أن أثبتت المعركة عقمها.

ويلق الراوى:

– لعله كان أبعد نظراً.

(1) يقع نجيب محفوظ هنا فى خطأ بنائى فادح يتعلق بالسياق الزمنى للرواية، فقد أعتقل الشيوعيون قبل أن تبدأ علاقة الراوى مع الدكتور عزى، سنة 1960 كما يحدد، والقرارات الاشتراكية أعلنت أثناء اعتقال الشيوعيين وليس قبل ذلك كما نفهم من السياق. لمزيد من التفاصيل عن الحركة الشيوعية المصرية وموقفها من ثورة يوليو خلال الفترة، راجع: د. رفعت السعيد، تاريخ الحركة الشيوعية المصرية 1957-1965، شركة الأمل، ط1، القاهرة، 1986.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

فلا يملك الدكتور إلا أن يقول بدوره:

– اسمح لي في هذه الحالة أن ألعن بعد النظر!

قد تكون النتيجة واحدة، ولكن الطريق إليها مختلف. ووفق هذه القاعدة، فإن عزمي شاكر يختلف عن الذين خاضوا التجربة واكتسبوا بنيران المعارضة قبل أن يضطروا إلى التعايش مع ثورة يوليو.

وعلى الرغم من حماس الدكتور عزمي للثورة وتعاطفه مع الشيوعيين، حزنا صادقا عند الاعتقال وغبطة من القلب بعد الافراج، فإن نفسه لا تخلو من الامتعاض لأن المفرج عنهم تولوا المناصب الرئيسة في الدولة والصحافة، تاركين إياه – نسبياً – في القاع. وتتجلى المראה في قوله للراوى:

– أخشى أن يكتشف الكتاب يوماً أن اللامعقول أسلوب مناسب لمعالجة العقائد أيضاً!

ولعل الامتعاض الذى أصابه هو ما دفعه إلى العودة من جديد إلى أحضان الجامعة، وهى العودة التى رفضها من قبل عندما عُرِضت عليه بعد تعاونه مع الثورة وحماسه لها!

ويتوقف الراوى طويلاً أمام رد فعل الدكتور عزمي على هزيمة 1967. لقد أصابه ما أصاب الجميع، وتزلزل كيانه من وقع الصدمة، ولكنه كان من أوائل الذين تماسكوا: ففي أكتوبر من السنة نفسها نشر مقالة المشهور الذى حلل به الهزيمة، فاعتبرها درساً، وحذر من الاستسلام لطغيان النقد واحتقار الذات وتعذيبها وفقدان الثقة بالنفس، وأكد فى النهاية حقيقة ما

عزى شاكِر _____

زال يؤمن بها وهى أن الثورة هى الأرض الحقيقية المتنازع عليها، لا سيناء ولا القدس، وأنها هى التى يجب أن تبقى وأن تستمر.

ولا يقنع الدكتور بالقال، ففى الأعوام التالية عكف على تأليف كتابه " الراضع " - بلغة الراوى - "من الهزيمة نبدأ": وهو دستور لحياة جديدة تشق طريقها نافضة عن نفسها ركام الأتربة.

يتحمس الراوى لكتاب صديقه الموصوف بالروعة، ولكن الحماس يغيب عن آخرين لا يشاركونه الرأى.

المفكر سالم جبر يغضب من إعجاب الراوى بكتاب الدكتور عزى، ويرى أن الدكتور ليس إلا معادلاً موضوعياً مدنياً.

ويسخر عجلان ثابت من الكتاب، ويتلاعب بعنوانه فيسميه متحكماً فى اتهام: "من الانتهازية نبدأ"١.

ولكن هذه الاعتراضات والسخريات لا تؤثر فى حماس الراوى للدكتور عزى الذى يعمل بهمة مذهلة، وهو لا يخفى أن إعجابه مرتبط بصدق الرجل وتوافقه مع نفسه: هو من القلة التى لم تصب بانقسام الشخصية، فهو هو سواء تكلم على الملأ أم فى مجالسه الشخصية.



← الفصل الخامس



كامل رمزي

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

فى معرض الحديث عن رضا حمادة، يقول الراوى: غير أن إعجابى الأول به إنما يرجع إلى شخصيته الأخلاقية قبل كل شئ، وقليلون جداً ممن عرفتهم يماثلونه فى ذلك مثل كامل رمزى وسرور عبد الباقي.

رضا حمادة وفدى ليبرالى، وسرور عبد الباقي تقليدى محافظ بلا انتماء سياسى محدد، وكامل رمزى ماركسى. الأول رجل قانون، والثانى طبيب وأستاذ فى كلية الطب، والثالث أستاذ جامعى متخصص فى الاقتصاد. الشخصية الأخلاقية هى المشترك الذى يتجاوز الانتماءات السياسية والمهنية وهى التى تجمع ما يبدو للوهلة الأولى أنه مختلف متنافر.

كامل رمزى ماركسى أخلاقى يحظى بإعجاب الراوى واحترامه على الرغم من تأخر التعارف بينهما مقارنة برفيقى العمر رضا وسرور: تعارفنا عام 1965 فى بيت الدكتور عزمى شاكى. كان حديث عهد بالحرية بعد أن قضى فى الاعتقال خمسة أعوام . وهو أسمر نحيل طويل أصلع كبير الرأس

كامل رمزي

صغير العينين براقهما في الخمسين من عمره. دكتور في الاقتصاد وكان أستاذا بكلية التجارة حتى تاريخ القبض عليه. قلت له :

– قرأت كتابك عن المذاهب الاقتصادية وأشهد بأنه أمتعنى بقدر ما أفادنى.

فشكرنى وقال :

– كانت الحياة الجامعية تناسبنى جداً !

وقال الدكتور عزمى شاکر :

– أتهم خطأً بالنشاط العملى أما الحقيقة فهى أنه أستاذ مفكر لا يجاوز نشاطه مجال التفكير والتأليف.

وفى نفس الأسبوع الذى تعارفنا فيه ولى منصباً كبيراً، وقال لى عزمى شاکر للمناسبة :

– إنه مثال فى العلم والحزم والنزاهة.

خمس سنوات فحسب هى التى تجمع بين الراوى وكامل رمزي، من بداية التعارف سنة 1965 إلى نهاية الإطار الزمنى الذى تدور فيه أحداث "المرايا" سنة 1970، ولكنها سنوات كافية لتشكيل صورة متكاملة عن شخصية مفتاحها الأساس يتمثل فى سيطرة النزعة الأخلاقية التى تتجلى فى الإخلاص للعلم والتفانى فى العمل والالتزام الصارم بالنزاهة. الدكتور كامل رمزي ماركسى "نظري" لا يميل إلى النشاط العملى، وأستاذ جامعى يحب مهنته ويقدم إنتاجاً علمياً مقروءاً متميزاً، وفى سيرة حياته ما يقدم النموذج المثال للعالم الحازم النزيه.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

والدكتور كامل ليس شخصاً محبوباً بقدر ما هو شخص محترم، وبين الحب والاحترام فارق كبير لا يمكن إغفاله. إنه ينال احترام الأصدقاء سالم جبر وزهير كامل ورضا حمادة وقدرى رزق وصادق عبد الحميد، وهم مختلفون كل الاختلاف، ولكن الراوى يلاحظ أن أحداً من هؤلاء الأصدقاء لا يغالى فى حبه.

ربما يكمن السر فى طبيعته التى تفتقد المرونة ولا تخلو من الحدة وتميل إلى التزمّت وتتسم بصراحة جافة وصدق موجه: وله قدرة فائقة فى المناقشة والجدل. ويتكلم إذا تكلم بثقة وصراحة وقوة. ولا يؤمن فى شئ بالحلول الوسطى، ولا بالمجاملة، ولا بالتسامح، بل يؤمن برأيه لحد التعصب، ولا يطبق المعارضة فهى تثير أعصابه وتخرجه عن الاتزان اللائق بمركزه فسرعان ما يهدر غاضباً بالحجج والأدلة وكأنه يخوض معركة حامية. وهو يشبه عبد الوهاب إسماعيل فى تعصبه على تناقضهما فى الأسلوب، حتى قلت مرة للدكتور عزمى شاكراً:

— إنه عالم ولكنه ذو عقلية دينية!

فقال:

— إنه متعصب بلا شك، ومشتعل فى مناقشته، ولكن أعصابه لم تفسد بهذه الصورة إلا بعد تجربة الاعتقال.

كيف يحظى بالحب رجل صريح بعيد عن المجاملة والتسامح وأقرب فى مناقشاته إلى التعصب والعصبية؟! عبد الوهاب إسماعيل^(١) - فى

(١) الشخصية - كما يقدمها نجيب محفوظ - قريبة فى ملامحها وسماتها من المفكر الإسلامى المعروف سيد قطب، وعبد الوهاب إسماعيل ينال احترام الراوى وتقديره - مثل كامل رمزى - ولكنه موصوف بالتعصب الدينى.

كامل رمزي

مرحلته الثانية - ينتمى إلى الإخوان المسلمين وصاحب نظرية فى تكفير المجتمع ومعاداة العلم والعقل، وكامل رمزي ماركسى ينتمى إلى الحركة الشيوعية المصرية، ولكنهما يتفقان ويتشابهان فى التعصب الذى يؤدى إلى نفور الآخرين وإن لم يقض على الاحترام.

يقول عنه رضا حمادة:

- لقد تشفعت به فى نقل موظف فأعطاني درساً قاسياً فى فساد الوساطة، ومع أننى استأت فى نفسى إلا أننى ازددت إعجاباً به..

ويضيف عزمى شاك:

- بل أوصاه وزيره بموظف فاعتذر عن عدم التنفيذ حرصاً على مبادئ العدالة!.

ولا يملك الراوى عند هذه الواقعة إلا أن يتدخل - ونجيب محفوظ على دراية واسعة بعالم الموظفين⁽²⁾ ومعنى توصية وزير - ليتساءل فى دهشة:

- وزيره نفسه؟!

- أجل، إنه خلق صلب غير قابل للثنى، ولذلك أشك كثيراً فى إمكانية بقائه فى منصبه.

فسأل رضا حمادة:

- هل يستغنون عن موظف لاستقامته؟

(2) عن تأثير الوظيفة على العالم الفنى لنجيب محفوظ، راجع دراستنا "صورة الموظف فى روايات نجيب محفوظ". طبعة محدودة، مكتبة السلام، المنيا، 1990.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

ويرد الدكتور عزمى:

– إن الأسباب التى تدعو للاستغناء عن موظف لاستقامته أكثر من الأسباب التى تدعو للاستغناء عنه لانحرافه!

ويعترف كامل رمزى نفسه بأن أحداً فى إدارته لا يحبه بدءاً من الفراش حتى الوزير:

– لا أستطيع أن أهتم بعواطف الناس والمصلحة العامة معاً، إن منصبى يحتاج لألعبان لا لموظف أمين.

ثم قال بازدراء:

– نحن شعب المصاطب والمجاملات والمساومات.

صداقة الدكتور كامل مع رضا حمادة لا تقود إلى الوساطة البغيضة، والمنصب الوزارى لا يعنى إهدار العدالة وتكافؤ الفرص. قد يكون رضا قادراً على استيعاب الدرس الذى يقدمه الصديق الجاد الملتزم، ولكن المجتمع لا يعمل وفق قوانين أمثال رضا! لا ينال الحب إلا من يتقن أسلوب المصاطب ويجامل ويساوم، ولذلك يصح ما توقعه الدكتور عزمى ولا يعمر كامل رمزى فى وظيفته الكبيرة: باشرها عاما واحداً حتى ضج جميع أهل الأرض من صلابته ونزاهته، وإذا بجرائد الصباح تنشر خبر نقله إلى مؤسسة صحفية. ومن عجب أن عمت الشماتة به أكثرية الناس.

أكثرية الناس هم الذين يمثلون المجتمع، وهؤلاء الشامتون يعرفون نبيل ونزاهة كامل رمزى، ولكنهم – فى الوقت نفسه – يضيّقون بنبيله ونزاهته. كامل وأمثاله من الأخلاقيين يفضحون – بقوة أخلاقهم – المتخاذلين الضعفاء: لذلك لم أسمع رثاء له إلا بين خاصة أصدقائه. وأما هو فقد غضب وفاضت نفسه

كامل رمزي

مرارة وخيل إليه أن نواميس الطبيعة تقلقلت وشدت عن مداراتها. ولكن ذلك لم يمنعه من مزاوله عمله الجديد بنفس الهمة والنزاهة والقوة السابقة، بل إنه وجد فراغاً لم يكن يجده فاستأنف نشاطه العلمي، وشرع في وضع قاموسه السياسي. وكان وما زال شعلة من النشاط المتواصل، ونورا يطارد ظلمات اليأس.

الغضب شعور إنساني، والمرارة مبررة، ولكن جوهر الشخصية لا يتغير فتستمر الهمة والإيمان بقداصة العمل كواجب لا يمكن التخلي عنه.

ولأن العمل قيمة مقدسة، فإن الخلافات الأيدلوجية بين الدكتور كامل وثورة يوليو - وهي التي أعتقل بسببها خمسة أعوام - لا تحول بينه وبين التعاون مع الثورة في إخلاص لا يتناقض مع غياب الإيمان الكامل بها: خلقت لأعبد العمل وأخلص له.

وفي حياة الدكتور كامل الشخصية ما يتوافق وينسجم مع أفكاره وسلوكه العام. زوجته دكتورة في الاقتصاد ومدرسة بكلية التجارة ومثال مشرف للمرأة المصرية، وعندما يزداد اختلاط الراوى به فإنه يتعرف على أسلوبه في الحياة: فهو يميل إلى التقشف في ملبسه، و طعامه الذي يشبه الرجيم، وإلى ذلك فهو لا يدخن ولا يذوق الخمر. وهو يعترف للراوى بأنه لم يعرف المرأة قبل الزواج، وقاوم جميع المغريات وهو طالب في البعثة!

وعلى الرغم من إيمان الدكتور بالمادية الجدلية، فإنه يصوم رمضان متأثراً بتربية أبيه العامل البسيط المتدين، وله وجهة نظر في الدين تختلف عن رؤية الشيوعيين التقليديين: العظمة الحقيقية للدين لا تتجلى إلا عندما تعتبره لا ديناً! عالم ذو عقلية دينية، ومادى متقشف ذو سلوك مثالي؛ هذا هو الدكتور كامل رمزي الذي يقدم نموذجاً لأستاذ الجامعة الجاد المحترم غير المحبوب.

← الفصل السادس



ماهر عبد الكريم

كان الدكتور ماهر عبد الكريم أستاذاً مساعداً بكلية الآداب عندما التحق بها الراوى عام 1930 ، ومنذ البدء يتميز الدكتور ماهر عن غيره من الأساتذة: يتمتع بسمعة علمية وأخلاقية وإنسانية كأنها عبير المسك. ولم أعرف أستاذاً فتن طلبته بسجاياه الروحية وسماحة وجهه مثله. وهو سليل أسرة عريقة، عُرِفَتْ بثرائها كما عُرِفَتْ فى التاريخ الحديث بولائها للحزب الوطنى، وعد هو بالتبعية من الموالين للحزب، ولكن ذلك لم ينل من حبنا له، والحق أنه لم يعلن عن ميل سياسى قط، ولم يقع فى رذيلة التعصب أبداً، ولم ينطق فى حديث عن هوى أو تحيز أو حقد، ووهب نفسه للعلم والخير.

علم وأخلاق وإنسانية، شعبية جارفة فى الوسط الطلابى الذى لا يمنح الحب بسهولة، أسرة عريقة ثرية ذات اتجاه سياسى معروف، ابتعاد محمود عن التعصب وضيق الأفق؛ هذا هو الدكتور ماهر عبد الكريم الذى يقدمه نجيب محفوظ كنموذج أرقى وأسمى لأستاذ الجامعة.

ولعله مما يؤكد مكانة الدكتور ماهر الراسخة فى قلوب تلاميذه أن انتماءه الموروث للحزب الوطنى، وهو الحزب الذى قاد الحركة الوطنية

ماهر عبد الكريم

المصرية قبل أن يزيحه الوفد في أعقاب ثورة 1919، لم يهز مكانته أو يشوه صورته في مرحلة تاريخية كان التعصب السياسى فيها طاغياً، والوفد هو المهيمن على عقول ووجدان الأغلبية العظمى فى الشارع المصرى والجامعة⁽¹⁾ على حد سواء. يقول الراوى إن انتماء أستاذهم للحزب الوطنى لم ينل من حبه له، وكان الأصل أن يؤثر مثل هذا الانتماء فيسلب الحب والتقدير! وفى صالون الدكتور ماهر ذى النزعة الثقافية، كان تلاميذه يتجنبون الحديث فى السياسة لكونه من المنتمين للحزب الوطنى بحكم أسرته ونشأته على حين أن تلاميذه جميعاً كانوا من شباب الوفد.

التلاميذ "جميعاً" من الوفديين، والدكتور - لأسباب أسرية قبل أن تكون سياسية - محسوب على الحزب الوطنى، ولكن الاختلاف السياسى لا يفسد المودة العميقة التى يكنها له تلاميذه وفى مقدمتهم الراوى الذى يبدو منجذباً ودرويشاً وعاطفياً بلا حدود: كرمه كان يلتهم ثروته، فلم يصد محتاجاً قط، وكان يجود بالإحسان سراً كأنما يتستر على عيب، وكان مثلاً لسعة الصدر، هكذا كان فى مناقشاته العلمية والعامة، بل والسياسية إذا جر إليها جراً، وكان أسارى وجهه لم تهياً أصلاً إلا للتعبير عن التأمل أو الترحيب أو البشاشة، وغير قابلة للإفصاح عن الحدة أو الغضب. وكان قصره القديم بالنيرة ملتقى أهل العلم والأدب والفكر، وبه متسع دائماً لطلبته فيقدمهم إلى الكبار ويعاملهم معاملة الأنداد، وما أكثر الذين عرفتهم فى صالونه من رجال الفكر.

(1) يقول عجلان ثابت فى "المرايا": لا تحترم طالباً غير مهتم بالسياسة، ولا تحترم مهتماً بالسياسة إن لم يكن وفدياً، ولا تحترم وفدياً إن لم يكن فقيراً. لمزيد من التفاصيل عن شعبية الوفد وتغلغله فى الحركة الطلابية، راجع دراستنا: "الرؤية الوفدية فى أدب نجيب محفوظ".

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

ليس حياً عادياً ذلك الذى يكنه الراوى للدكتور ماهر عبد الكريم، فالأمر يتحول إلى نوع من العشق الذى تعبر عنه لغة موهلة فى العذوبة والشعرية. ولا يبالغ الراوى عندما يتحدث عن قيمة وأهمية الصالون الثقافى الذى يمثل محطة رئيسة فى حياته وحيوات غيره، ففى الصالون تدور أخطر الأحاديث السياسية والثقافية والاجتماعية التى تعبر عن تفاعلات الحياة المصرية عبر ما يزيد عن ثلث قرن من الزمان، وفى الصالون أيضاً يتعرف الراوى على كثير من شخوص الرواية كما ينص على ذلك فى معرض الحديث عنهم.

تعرف الراوى - أثناء دراسته الجامعية - بالمفكر سالم جبر فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة، وعرف الناقد الأدبى عبد الوهاب إسماعيل - الزعيم الإخوانى فيما بعد - فى الصالون نفسه أثناء الحرب العالمية الثانية، وبدأت علاقته مع الدكتور اليسارى عزمى شاكى فى الصالون أيضاً عام 1960.

مفكر أقرب إلى الفوضوية، وآخر تنتهى حياته مع الإخوان المسلمين، وثالث ينتمى إلى اليسار. كلهم فى الصالون الذى تحول إلى كعبة ومقصد لأهل الفكر فى مصر، ومن هنا كثرة المترددين عليه وحرص البعيدين عنه على الانتساب إليه. من هؤلاء الدكتور صادق عبد الحميد: وبتحريض حار من ناحيته قدمته إلى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم.

وفى هذا الإطار يمكن تفسير الخجل والحرص الذى يمنع من يشعرون بارتكاب الخطأ من التردد على "الكعبة" التى تجمع الصفوة والشباب معاً.

الدكتور إبراهيم عقل يمتنع عن الحضور إلى الصالون بعد وثوبه الانتهازى إلى الوظيفة الجامعية الكبيرة، واقتصرت مقابلاته لصديقه على الزيارات الخاصة.

ماهر عبد الكريم

وبعد انقلابه الانتهازي المفاجئ وتحوله المذهل من الودف إلى ضباط
يوليو، يتجنب الدكتور زهير كامل التردد على الصالون.

يقدم الدكتور ماهر عبد الكريم من خلال صالونه الثقافي المزدهر
نموذجاً إيجابياً فعالاً لدور الأستاذ الجامعي في إثراء الحركة الثقافية وتشجيع
تلاميذه على النمو والاستقلال الفكري. وعلى الرغم من سماحة الدكتور وترحيبه
بكافة الاتجاهات الفكرية والسياسية المتنافرة، فإنه يعلى من شأن الجانب
الأخلاقي فلا يفتح بيته للمشبهين ومن تحيطهم الأقاويل والشائعات. وكم
تألم الراوي عندما لم يجد من أستاذه استعداداً للترحيب بعجلان ثابت:

– يقال إنه شخص ..

وابتسم ابتسامة استغنى بها عن تسجيل وصف لا يرتاح إليه ذوقه الرفيع ا.

صالون الدكتور ماهر "كعبة" يحج إليها الجميع، وقد يغادر
الدكتور قصره في النيرة إلى فيلا حديثة في مصر الجديدة، ولكن الصالون لا
يتبدل ويستمر في أداء دوره: وقد باع قصره القديم بالنيرة واشترى فيلا
جميلة بمصر الجديدة ما زالت حتى اليوم تستقبل أهل الفكر والرأى.

لا يقتصر الإعجاب بالدكتور ماهر على الراوي وحده، فالدكتور
إبراهيم عقل يقول عنه: لو كان جميع الأغنياء مثل ماهر عبد الكريم، لقررت
أن المثل الأعلى للإنسان أن يكون غنياً!

وطنطاوى إسماعيل، الأخلاقي المتزمت المتشدد، يرى أنه رجل عظيم.

ولكن المدح يتداخل مع الذم والرغبة الخبيثة في النقد والانتقاص
عند سالم جبر وعباس فوزى، وتقييم ما يقولانه والحكم على مدى موضوعيته
يتطلب تعريفاً موجزاً بهما.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

سالم جبر من الدعاة المتحمسين للحضارة والاستقلال الاقتصادي
وتحرير المرأة، ولكنه متقلب سياسياً ومولع بالمعارضة الدائمة. يقول عنه
الراوى بعد استعراض بعض تناقضاته: واقتنعت أخيراً بأنه شخص غريب
خلق ليكون معارضاً، حبا في المعارضة قبل كل شيء، فإذا كانت الدولة
إقطاعية فهو شيوعي، وإن تكن يسارية فهو محافظ.

وكثير من زملاء ومعارف سالم جبر يتخذون تجاهه موقفاً سلبياً.

إبراهيم عقل يحذر تلميذه الراوى من فلسفة سالم الكاذبة، وعباس
فوزى يصفه بالفجور، أما رضا حمادة فيوقن بجنونه ويعتقد أنه لا يوجد
إنسان مثله يجمع الكل على بغضه!

عباس فوزى عالم كبير متبحر في التراث، وهو يحفظه كله شعراً
ونثراً عن ظهر قلب! ولكنه - مثل سالم جبر - كثير التناقضات ومولع
بانتقاص الآخرين والخط من شأنهم، ويبادله الآخرون مشاعره! يقول عنه
طنطاوى إسماعيل إنه ذو علم وبلا خلق، ويزعم أعداؤه أن والده كان ترابياً
وأمه غسالة، ورموه كذلك بالشذوذ الجنسي!

سالم جبر وعباس فوزى - وهذا حالهما - ليسا من الموثوق فيهما
وفي قدرتهما على التقييم الموضوعى المنصف للآخرين، وما يقولانه عن
الدكتور ماهر عبد الكريم يحتاج إلى مراجعة وتمحيص وتأمل.

سالم جبر يحب الدكتور ماهر ويعجب به، ولكنه يراه من طبقة
النبلاء: لم يعرف الفقر، ويرى الشعب من فوق، وله رؤيته الخاصة وهى
رغم جاذبيتها ونقاها غريبة عنا كأنها لغة كوكب آخر.

والساخر اللاذع عباس فوزى يمدح الدكتور ماهر بكلمات ظاهرها

ماهر عبد الكريم

الرحمة وباطنها العذاب ، وآراؤه خبيثة تحتمل التأويل ! .

يقول عنه إنه وجيه نبيل ، مملوك من نسل مماليك ! .

ويقول أيضاً : فى مصر لا يجتمع النبل والثورة والعلم ، ولكن النبيل
الغنى متعالم ، يستغل ذكاء الفقراء ، يجمعون له البحث ويقترحون عليه
الأفكار ، أما هو فيصنى بوقار ويوقع بإمضائه ! .

ومرة أخرى يقول للراوى : أستاذك ذواقة لكل طعام جيد ، يلتهم فى
اليوم ما يكفى لغذاء لواء من الجيش ، خبرنى يا عزيزى متى يفرغ من الهضم
ليتفرغ للتفكير والبحث ؟ ! .

سالم جبر يتهم الدكتور ماهر بالانعزالية والاستغراب والتعالى ،
وليس فى سلوك الدكتور ما يؤكد الاتهام الذى يبدو مرسلًا بلا دليل . أما
عباس فوزى فيوحي قوله الأول أن ماهر عبد الكريم شاذ جنسياً " مملوك من
نسل مماليك " ، ويقود قولاه الآخرين إلى اتهام الدكتور بالاعتماد على جهود
غيره فى التأليف والإنتاج العلمى . تهمة الشذوذ مرسله وقد آتتهم بها عباس
نفسه ، أما علم الدكتور فقد عاينه تلاميذه بشكل مباشر وعرفوا ما يتمتع به
أستاذهم من دقة ووضوح وغزارة فى العلم .

اتهامات متهاففة لا تصمد للمقارنة بالفضائل الكثيرة التى يستحق
بسببها الدكتور آيات المدح والثناء ، والذى يستدعى التوقف هو ما يتعلق برؤية
الدكتور ماهر عبد الكريم السياسة و مواقفه العملية المترتبة على هذه الرؤية .

ينتمى الدكتور ماهر إلى الحزب الوطنى ، وإن لم يعلن عن ميل
سياسى قط ، أما تلاميذه – ومنهم الراوى – فينتمون "جميعاً" إلى حزب الوفد .

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

والحزب الوطنى فى عالم نجيب محفوظ لا يحظى بالاحترام والتقدير إلا فى المرحلة السابقة لثورة 1919، وبعدها يتحول إلى واحد من أحزاب الأقلية المكروهة من الوفديين والمتهمة بعدد من النقائص والعيوب.

عدلى كريم - المفكر التقدمى- يصف الحزب الوطنى بأنه تركى دينى رجعى! "السكرية -107".

ورياض قلدىس - فى معرض حديثه عن الوفد الذى ينتمى إليه - يرى أنه ليس حزباً دينياً تركياً كالحزب الوطنى. "نفسه-175"

وبينما الوفد هو حزب الوحدة الوطنية، كان الشيخ عبد العزيز جاويش - أحد قيادات ورموز الحزب الوطنى - يقترح فى الماضى أن يصنع المسلمون أحذيتهم من جلود المسيحيين⁽²⁾. "نفسه-178"

(2) نشر الشيخ عبد العزيز جاويش (1876-1929) مقاله "الإسلام غريب فى بلاده" فى جريدة "اللواء" - جريدة الحزب الوطنى- فى 17 من يونيه سنة 1908، وجاء مقاله العنيف فى سياق مناخ متوتر اشتعل فيه الصراع واشتد الخلاف بين المسلمين والمسيحيين. وقيل أن ينشر الشيخ جاويش مقاله بيومين كتب فؤاد كامل طاعناً فى الدين الإسلامى: "إن الاعتزاز بالقوة والاستهتار بالضعيف، هما الحجران اللذان بنى عليهما، ما يسمونه مجد الإسلام!!"

وفى مقال الشيخ جاويش الذى حوى العبارة العنيفة التى يستشهد بها رياض قلدىس، ما ينم عن اعتزاز الرجل بالوحدة الوطنية وحرصه على العلاقة الودية بين المسلمين والمسيحيين فى مصر.

لمزيد من التفاصيل، راجع:

- أنور الجندى: عبد العزيز جاويش، الدار القومية للطباعة والنشر، سلسلة أعلام العرب، العدد 44، القاهرة، 1965.
- فتحى رضوان: مشهورون منسيون، مؤسسة أخبار اليوم، كتاب اليوم، العدد 27، القاهرة، 1970.

ماهر عبد الكريم

ويتحدث عامر وجدى عن القوى السياسية التى عاصرها، ومنها
الحزب الوطنى بحماساته وحماقاته. "ميرامار-23"

ويصف نجيب محفوظ أحد رجال الحزب الوطنى فى طوره الثانى
- طنطاوى إسماعيل- فيقول إن وطنيته تبلغ درجة التعصب
الأعمى. "المرايا-22"

وهكذا يظهر الحزب الوطنى فى صورة سلبية بعد نجاح ثورة 1919
التي قضت على الكثير من شعبية الحزب الذى قاد الحركة الوطنية قبلها.

مكانة الدكتور ماهر فى قلوب تلاميذه الوفديين تحول بينهم وبين
الحديث فى السياسة، ولكنهم لا يتخلون أبداً عن رؤيتهم التى تؤثر فى
تقييمهم للآخرين من أصحاب الانتماءات السياسية المختلفة. ولقد عاش
الدكتور ماهر حياته كلها بعيداً عن الشبهات، ولكن الراوى - مع حبه -
يأبى إلا أن يشير إلى شائعة تتعلق بأستاذه الأثير فى فترة القلاقل بعد نهاية
الحرب العالمية الثانية: قيل إنه رفع خطاباً سورياً إلى الملك فاروق يحذر من
مغبة التمرد الذى يجتاح الشباب، مفصلاً أسبابه وبواعثه ومقترحاً العلاج له.
سمعنا ذلك فيما نسمع من شائعات فى المقاهى، حتى اليوم لم أتأكد من صدق
الشائعة، وكل ما قيل عنها كان ضرباً من التخمين ونتيجة للأهواء السياسية
المتنازعة، فقال وفديون إنه اقترح على الملك حل الأحزاب وإقامة ديكتاتورية
صالحة تعجل بالإصلاح وتربى الشباب تربية دينية علمية، وقال المتطرفون من
تلاميذ سالم جبر إنها دعوة لثورة مضادة يراد بها تفادى الثورة الحقيقية.

ويتدخل الراوى ليدلى برأيه المختلف عن الوفديين الذين لا يعرفون
أستاذه وعن المتطرفين الذين يرددون أفكار سالم جبر: أما أنا فسأنتنى

أستاذ الجامعة في عالم غيب محفوظ

الرسالة - مهما كان مضمونها - باعتبارها انتهاكا لحرية الدستور واستهتارا بسلطة الشعب، ووجدتني في حرج شديد بين إجلالي لأستاذي وبين موقفى السياسى الواضح، ووجدت حرجاً أكثر فى مفاتحته بالموضوع، غير أن جعفر خليل وجد الجرأة لمفاتحته.

الأمر كله مجرد شائعة انطلقت فى مرحلة متقلبة تروج فيها الشائعات والأكاذيب، وفى مناخ سياسى ملئ بالقلق تكتسب الأقاويل تأثيرا وتحدث دويا لا علاقة له بصدق وموضوعية ما يقال. يتعامل الجميع مع الشائعة كحقيقة، ويتبارى الوفديون وغيرهم فى تحليل "الخطاب السرى" والوصول بتحليلاتهم إلى أحكام قاسية بلا سند من المنطق. وعلى الرغم من أن الراوى يعترف بأنه لم يتأكد من صدق الشائعة، وعلى الرغم من معرفته الوثيقة بأستاذه وأخلاقياته، فإنه - من منطلق عقيدته الوفدية الطاغية - يتعامل مع الرسالة كحقيقة تثير غضبه لأنها تمثل انتهاكا للدستور واستهتارا بالشعب!.

ما الذى حدث عندما وجد جعفر خليل فى نفسه الجرأة على مصارحة أستاذه بكل ما يقال ويشاع؟. أنصت الدكتور فى هدوء وابتسم، ثم سأله:

- صدقت ما يشاع وما يقال؟

فتراجع جعفر خليل قائلاً:

- كلا

فاكتفى الأستاذ بقوله:

- عظيم!

المناخ المشحون بالتوتر يدفع الراوى وصديقه جعفر إلى التصديق

ماهر عبد الكريم

والشك، والثقة المطلقة في الأستاذ الجليل تؤدي إلى التراجع، وتنتهي مشكلة ليس لها وجود!.

الدكتور ماهر عبد الكريم ليس وفدياً شعبياً، وأصوله الاجتماعية تتوافق مع شخصيته الهادئة للوصول إلى بناء فكري عاقل متزن يتسم بدرجة عالية من الاعتدال الذي يتجلى في تعليقاته ورؤاه ومقولاته التي تصدر عنه في عديد من المواقف.

ثقتة في الشعب ليست مطلقه كما هو الحال عند الوفديين المتحمسين، وفي حوار سياسي ساخن عن الحياة الدستورية والحزبية بعد ثورة 1919، يتدخل بهدوء ويقول في صوت ناعم هامس: شعبنا مثل الوحش المذكور في بعض الأساطير الشعبية يستيقظ أياماً ثم ينام أجيالاً.

وهو يعادي الأفكار اليسارية ويرفض التجربة الاشتراكية السوفيتية التي يتحمس لها سالم جبر: إنك يا أستاذ تحلم بثورة كالتى قامت في روسيا منذ أربعة عشر عاماً، وهى تتكشف كل يوم عن مضاعفات خطيرة.. واعتقد الدكتور ماهر دائماً أن الإسلام يكفل للناس عدالة اجتماعية شاملة كما اعتقد أن نشر التعليم يحقق الغاية نفسها بطريقة أخرى.

مفكر معتدل يزن أقواله بميزان دقيق ينأى به عن التطرف والانفعال، وهو لذلك بعيد عن الوفد وشعاراته الشعبية الحماسية بعده عن ثورة 23 يوليو وشعاراتها وممارساتها.

موقف الدكتور ماهر من ثورة يوليو يؤكد أن الرجل يستحق ثناء تلاميذه وحب عارفيه. إنه لا يتوافق مع أفكار الثورة وقراراتها، ولكنه لا

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

يخلط بين الذاتي والموضوعي في تعامله معها. وعلى الرغم من أن بعض إجراءات الثورة قد أصابته في الصميم وألحقت به ضرراً فادحاً لا يستهان به، فإن الراوى يشهد له بالاعتدال والإنصاف: ولا أظن أن إقطاعيا تلقى الضربة التاريخية في مثل هدوئه، تلك الضربة التي نزعت من يده عشرة آلاف من الأفدنة.

لم يعلن الرجل ولاه للثورة، لبعده عن مجالات الإعلام ولرغبته عن إقحام نفسه فيها بطريقة غير طبيعية أن يرمى بشيء مما يمس الكرامة، ولكنه لا يتردد عن إعلان الولاء - الذى لم يطالبه به أحد - فى مجالسه الخاصة. يقول لمجالسيه: إني مقتنع بما يقع فهو أقل ما يمكن كى يصلح الوطن للحياة وتصلح الحياة له.

ولا يستشعر الراوى فى حديثه أو سلوكه أى اثر لمرارة، ولا معنى بعد ذلك للتنقيب فى الأفئدة فلا يُطالب مثله بأكثر من ذلك، أكثر من أن يواجه بحكمة ثورة تاريخية منطلقة أصلاً لاقتلاع طبقاته، وأن يقنع نفسه بها فلسفياً كحركة تاريخية حتمية لا مفر منها طال الزمان أو قصر.

انتزعت ثورة يوليو من أسرة الدكتور ماهر آلاف الأفدنة، ولكنها لم تتعرض لشخصه بسوء. وفى ظل الثورة حصل الدكتور على حقه كاملاً من التكريم والتقدير: عين عضواً فى المجلس الأعلى للآداب ونال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية كما نال وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى. إن قدرته له الثورة مكانته العلمية وسمعته العطرة واستقامته العامة التى أبعدته عن الشبهات..

وتتجلى وطنية الدكتور فى أسمى صورها بعد هزيمة 1967، وهى الهزيمة التى فرح بها كل أعداء الثورة. ماهر عبد الكريم لم يفرح أو يشمت،

ماهر عبد الكريم

بل إنه يجد حرجاً في الاحتفال الذى أقامه تلاميذه وأصدقائه له بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسبعين الذى حل بعد عامين من الهزيمة: لا احتفال بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة، فلا يجوز أن نحتفل ونحن نقاتل..

يبقى جانبان فى شخصية الدكتور ماهر عبد الكريم يستحقان التوقف: الأول هو حياته الشخصية والعاطفية، والثانى هو خصوصية علاقته مع صديقه الدكتور إبراهيم عقل.

ليس فى "الرايا" كلها ما يكشف عن الحياة الشخصية والعائلية للدكتور ماهر، فلا إشارة إلى زوجة أو أبناء. هذا الجانب مسكوت عنه تماماً، ومرة واحدة يتطرق الراوى إلى حياة أستاذه العاطفية عندما يدعوه الدكتور - مع زميله جعفر خليل - لتولى أعمال الترجمة عن اللغة الإنجليزية - التى يجهلها - عند زيارة آنسة أمريكية له فى قصره: أمها كلفتها بالبحث عن شخص فى مصر يُدعى ماهر عبد الكريم كان طالباً بالسوريون فى أعقاب الحرب العظمى..

ووضح لنا من تبادل الحديث أن أمها كانت زميلة لأستاذنا فى باريس، وأنها كانت صديقه أيضاً، وأنها انتهزت فرصة سفر ابنتها إلى مصر لتحملها تحياتها إليه⁽³⁾.

(3) يشير نجيب محفوظ إلى أن الفتاة الأمريكية الزائرة فى العشرين من عمرها، ولأن الحديث يدور فى أوائل الثلاثينيات - قبل تخرج الراوى سنة 1934 - فإن الفتاة مولودة قبل بداية الحرب، وهو ما لا يستقيم مع زمالة أمها للدكتور ماهر فى السوريون بعد نهاية الحرب!

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

علاقة نسائية قديمة تستدعي أن يتحدث الراوى وزميله عن "جمال" أستاذهما الذى يؤهله لدور الفتى الأول فى الأفلام المصرية، ولكن الحوار بينهما لا يفضى إلى المزيد عن حياة الدكتور العاطفية وعلاقاته النسائية. الراوى يستدعى بيت شعر للفرزدق يذكره دائما بوجه أستاذه:

يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم

ثم يقول:

- ما أتصوره أبدا متخلياً عن وقاره، فإذا كان الوقار لباسا لغيره فهو منه بمثابة اللحم والعظم.

فى غيابه لا يتجاوزان الحد ولا يخوضان فى سيرته، فهما لا يتحدثان مثلا عن السر فى عدم زواجه، ولا يتطرقان إلى حياته الخاصة المجهولة!

أما عن علاقة الدكتور ماهر بزميله وصديقه الدكتور إبراهيم عقل، المكروه من تلاميذه بحيث يمثل النقيض الكامل لماهر نفسه، فإنها حميمة ووثيقة. وليس أدل على قوتها ومتانتها من أن الدكتور إبراهيم عندما يتعرض لاتهام فى عقيدته بعد العودة من البعثة يتوسل بكثيرين - على رأسهم صديقه وزميله فى هيئة التدريس الدكتور ماهر عبد الكريم - لإخماد الفتنة واسترضاء مؤججيهها.

يقف الدكتور ماهر إلى جوار صديقه دائما، وعندما يفقد الدكتور إبراهيم ولديه فى محنة قاسية، لا يتخلى عن ثباته وتجلده إلا بعد حضور

ماهر عبد الكريم

الدكتور ماهر: خفض جفنيه على دمع تفجر رغم إصراره على الظهور بمظهر الثبات والصبر.

وبعد "الدروشة" التى لاذ بها الدكتور عقل وأثارت الأقاويل والجدل، كان الدكتور ماهر يفند كل حجة يأنس منها هجوما ولو من بعيد على مسلك صديقه الحميم. وهو يدافع باستماتة عن ذكاء صديقه ويشيد بعقليته الفلسفية الشاملة، وإذ يبلغه الراوى بما يقوله ضابط البوليس السياسى المتقاعد أحمد قدرى عن "قتل" ابنى الدكتور عقل، يبدى من الدهشة ما لم يعلنه وجهه الرصين الهادئ من قبل، ويعلق رافضاً مستنكراً: لا أصدق أن المرحوم إبراهيم عقل كان يخفى عنى سراً.

وفى الاحتفال بعيد ميلاده الخامس والسبعين، يتذكر الدكتور ماهر صديقه القديم - بعد سنوات من موته - ويقول فجأة:

- رحم الله إبراهيم عقل..

ويتساءل الراوى: ما الذى دعاه إلى تذكره؟. كان أحب الأصدقاء لقلبه، ولم اشهد دمه إلا يوم جنازته عام 1957.

وكأنما يجيب الدكتور ماهر عن تساؤل تلميذه عندما يقول:

- سلم بالإيمان تسليمه بالموت وبالحقائق الملموسة مثل شروق الشمس.

الاختلافات كثيرة بين إبراهيم عقل وماهر عبد الكريم، ولكن الصداقة تجمعها متجاوزة كل اختلاف. وبقاء ذكرى إبراهيم حية فى أعماق الدكتور ماهر تنم عن عمق الصداقة بقدر ما تكشف عن الجوانب

_____ أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ
المضيئة في شخصية إبراهيم عقل؛ تلك الجوانب التي غابت عن عيون
الآخرين.

وإذ تقترب رحلة الدكتور ماهر في الحياة من نهايتها، فإنه يقدم
ما يشبه الوصية في مخاطبته للمحتفلين بعيد ميلاده: قولوا ما شئتم، لا
جديد في التشاؤم، ولكن الحياة في صالح الإنسان، وإلا ما زاد عدده باطراد،
وما زادت سيطرته على دنياه.



الفصل السابع



محمود درويش

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

ينتمي الدكتور محمود درويش إلى جيل الراوى، وبفضل الزمالة في كلية واحدة يستطيع نجيب محفوظ أن يرصد ما يتميز به درويش من نكاء واجتهاد خارق، وما يتمتع به من مكانة محترمة بين الزملاء والأساتذة المصريين والأجانب.

على المستوى الشخصى يبدو محمود درويش جافا منطويا على نفسه، فهو لا يعرف الصداقة لأن حدود العلاقات الإنسانية عنده تنتهى عند المزملة والمصاحبة. وربما يكمن السر فى ذلك إلى نشأته الاجتماعية المتواضعة من ناحية ومعاناته من الحرمان والكبت الجنسى من ناحية أخرى. وليست صدفة - وإن تكن فهي دالة - أن الوجود الوحيد لمحمود درويش خارج الفصل المخصص له فى "المرايا" يأتى فى سياق الحديث عن سعاد وهبى التى تحولت إلى "ظاهرة" مثيرة للفتنة بين الطلاب، وعنهما يقول درويش:

- إنها غانية لا طالبة..

محمود درويش

ويضع نجيب محفوظ يده على مفتاح مهم لتفسير وفهم شخصية محمود درويش في قوله: وأما سعاد وهبي فكادت تتسبب في جنونه، ولكنه بدلا من أن يغازلها أو يحاول ذلك على الأقل راح يحمل على "تهتكها" حملة كادت تبلغ العلانية، وكان أول من ابلغ العميد عن تبرجها وعن الفتنة التي تثيرها في قاعة المحاضرات.

ما المخرج من أزمة الطالب المتفوق الخجول المحروم الذي يعمل أبوه "إمام مسجد" بكل ما تعنيه المهنة من سيادة التفكير الديني؟ ما السبيل للخروج من الصراع الحاد بين حيويته وبين حرمانه الإجماعي؟! كان العلاج هو الزواج المبكر من ابنة العم اليتيمة الريفية الأمية! قد لا تكون الزوجة المناسبة باعتبار ما سوف يكون، ولكنها "مفيدة" للخلاص من الكبت الجنسي والتفرغ للعلم وحده: أراحت باله، وأطلقت قواه في التحصيل دون عائق. ولم يعد له من اهتمام إلا العلم والتفوق.

محمود درويش إذن نموذج للأستاذ الجامعي الذي كان طالبا متفوقا ليس له من هدف إلا التفوق دون اهتمام يُذكر بالأجواء السياسية والثقافية والاجتماعية التي ينشغل بها العاديون من الطلاب: لم يكن يفرق بين مصطفى النحاس وإسماعيل صدقي، وأحيانا كان ينسى اسم "الباشا" الذي يرأس الحكومة.

وهو لا يقنع بتفوقه الدراسي وسلبيته السياسية، فيأبى إلا أن يعيب على زملائه اهتمامهم بم لا يفيد: كان يتابعنا أحيانا ونحن نهدر بأحاديث السياسة وكأنه عاقل يستمع إلى مجانين.

ولا يكتفى الطالب المجتهد بإظهار دهشته من سلوك زملائه، فهو

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

يمارس فعلاً عملياً يتوافق مع ما يؤمن به من أفكار ترفض الانشغال بغير
تحصيل العلم والدروس: ولما اجتاحت موجة الإضراب الجامعة وقف حيالها
غاضباً وعاجزاً، وكان يتسلل للمكتبة فيقرأ ويقرأ وحده حتى تغلق أبوابها.
ويوما وثب لمنصة الخطابة عقب خطبة ثورية ألقاها زعيم الطلبة. وثب إلى
المنصة، وبجراًة جنونية، دعا الطلبة إلى الانتظام في العمل والعكوف على
الدراسة باعتبارها هدفهم الاسمي، وهاج الطلاب وما جوا وطالبوا بإنزاله
ولولا الاحترام الذي اكتسبه بتفوقه لاعتدوا عليه اعتداء مؤكداً.

كان منطقياً، بمقاييس الحركة الطلابية وما يسودها من إشاعات
ومبالغات، أن يُتهم محمود درويش بالعمالة لأجهزة الأمن، وأن يُتهم أبوه
بترشيحه باعتباره من ألسنة إدارة الأمن وعيونهم!

ولأن الراوى رأيه السلبي في محمود درويش منذ البدء: استثقلت
ظله من أول يوم، فإنه لا ينفي الإشاعة التي انطلقت حول علاقة محمود
بأجهزة الأمن: وكدت أو من بصدقها عقب تخرجنا عندما أختير محمود
درويش عضواً في بعثة إلى فرنسا في فترة من الزمن توقفت البعثات فيها
تماماً.

أتكون البعثة هي مكافأة العمالة والخيانة؟^{١٩} الاتهام الموجه إلى
محمود أنه أرشد إلى زعماء الطلبة، وكم هو اتهام متهافت هزيل! أهؤلاء
الزعماء الذين يخطبون ويحرضون علانية من المجهولين لدى أجهزة الأمن
بحيث تظهر الحاجة إلى أمثال محمود درويش ليرشد عنهم؟^{١٩}

بعد التخرج في الجامعة تنقطع الصلة طويلاً بين الراوى ومحمود
درويش، ولا تعود العلاقة إلا بعد أن يتحول المبعوث إلى مدرس في الكلية

محمود درويش

يفكر في إصدار سلسلة كتب عن فلسفة التصوف.

بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية أضطر محمود إلى مغادرة باريس والحصول على الدكتوراه من سويسرا. عاد في صورة جديدة، مليئة بالحيوية والصحة والعافية.

لا يستمر الاتصال بين الراوى وزميله القديم، وبعد أعوام يلتقيان في صالون أساتذهما الدكتور ماهر عبد الكريم: وكانت قدمه قد رسخت في عالم التأليف وصدر له أكثر من ثلاثة كتب عدت من المراجع الهامة في دراسة التصوف في العصر الحديث. وسمعت عنها الثناء تلو الثناء من أساتذنا ماهر عبد الكريم. ويومها سألته عن أحواله فقال:

- لى أربعة أبناء في كليات الهندسة والتجارة والحقوق والآداب وبننت متزوجة من ضابط طيار..

فسألته باهتمام:

- هل تمارس التصوف؟

فأجاب ضاحكاً:

- كلا، ولكن لا مرء في أن الإنسان لا يتخصص إلا في مادة متغلغلة في نفسه.

أستاذ راسخ في تخصصه وناجح على المستوى العائلي. ليس متصوفاً، ولكن المادة التي أنفق فيها عمره تترك آثاراً في نفسه وتقوده إلى الطمأنينة والثقة والرضا والقدرة على التوافق مع الحياة.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

إن العلاقة بين محمود درويش والراوى ليست متوهجة، واللقاءات القليلة بينهما بعد مرحلة الزمالة الجامعية تخضع للصدفة وحدها، وصولاً إلى الانقطاع الكامل: ثم دُعِيَ للتدريس في إحدى الجامعات العربية فسافر خارج القطر وانقطعت عنى أخباره.

محمود درويش نموذج تقليدي لأستاذ الجامعة الغارق في التخصص والقانع بذاته والمنغلق على نفسه، وفي حياته الشخصية أزمة لا يحيط بها الراوى ولا يتوقف عندها طويلاً؛ الزواج المبكر من ابنة العم الرقيقة الأمية. قد تكون مناسبة بالنسبة لطالب يقاوم الحرمان الجنسي ويواجه الكبت، ولكنها ليست لائقة بأستاذ جامعي مثقف. بعد عودة محمود من البعثة يطرح عدلى المؤذن - على الراوى - مشكلة الانسجام والتوافق بين الزوجين:

- عاد خواجه كما ترى ليجد في انتظاره زوجة ريفية أمية.

المشكلة نفسها يفكر فيها الراوى دون أن يقوى على طرحها لأن علاقته مع محمود درويش باهتة لا تتجاوز الزمالة إلى الصداقة التي تتيح المكاشفة: وفكرت في زوجته التي اختارتها الظروف ربة لبيت من المثقفين وهى بدائية بكل معنى الكلمة، فوددت لو أتسلل إلى أعماق ذلك الجانب من حياته، ولكنه كان يبدو متألقاً بالسعادة والنجاح.

أستاذ جامعي، وأبناء يدرسون الهندسة والتجار والقانون والآداب، أما الزوجة الأم فجاهلة بدائية! ذلك الجانب المخبوء المستور في حياة محمود درويش لا نتسع له "المرآيا"، ولكن الظاهر يوحى بالسعادة والنجاح والرضا والإقبال على الحياة.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

خاتمة

توقفنا في الفصول السبعة السابقة أمام صورة أستاذ الجامعة كما يقدمها نجيب محفوظ في "الرايا"، ولعل في تنوع النماذج المقدمة ما يكشف عن حقيقة أولى ينبغي التسليم بها وهي أن الأستاذ الجامعي ليس إلا نتاجاً للواقع الذي يعيش ويعايشه.

ولأن في الواقع من يتسمون بأخلاق مثالية سامية ومن يهبطون إلى الدرك الأسفل من الانحطاط، فإن في أساتذة الجامعة من يستحقون التقديس ومن لا يليق بهم إلا الازدراء والتحقير.

وعند مناقشة الصورة العامة لأستاذ الجامعة كما يقدمها محفوظ، يحسن بنا أن نتوقف أمام الملامح السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهذه الصورة.

على المستوى السياسي يتوزع أساتذة نجيب محفوظ بين غياب الانتماء السياسي الواضح المحدد "إبراهيم عقل وسرور عبد الباقي ومحمود درويش" وبين الانتماء الشكلي غير الأصيل "ماهر عبد الكريم" وصولاً إلى اليسار بجهته العريضة التي تضم الشيوعيين والناصريين والمنتمين إلى الطليعة الوفدية "عزى شاكور وكامل رمزي" فضلاً عن الانتهازية السافرة الفاجرة التي تستعصى على التصنيف "زهير كامل". ومثل هذا التقسيم قد يكون معبراً عن المرحلة التاريخية التي تنتهي في أوائل السبعينيات، ولكن خريطة الانتماء السياسي طالتها تطورات في المراحل التالية، وهو ما لم تعبر عنه "الرايا" وعموم كتابات نجيب محفوظ الأخرى.

من الناحية الاقتصادية والاجتماعية تتنوع الأصول الطبقية لأساتذة نجيب من الفقر المدقع "كامل رمزي ومحمود درويش" إلى الثراء الفاحش "سرور عبد الباقي وماهر عبد الكريم" مروراً بالوسطية والاعتدال "إبراهيم عقل وزهير كامل وعزمى شاکر". هذا عن الأصول "السابقة" للأستاذية، أما ما يترتب على الوظيفة من متغيرات اقتصادية فلا يحظى باهتمام خاص من نجيب محفوظ وإن أشار إلى استثمار البعض لعلمهم وسمعتهم الجامعية كما أشار إلى العمل في الجامعات العربية، وهى الظاهرة التى ازدادت انتشاراً منذ أوائل السبعينيات.

ويركز نجيب على الدور الثقافى لأستاذ الجامعة عبر محاور مختلفة تتمثل فى السلبية والانعزال عن المجتمع "إبراهيم عقل وسرور عبد الباقي" والانتهازية التى تستغل الثقافة ولا توظفها "زهير كامل" والانفتاح الإيجابى على المجتمع ومثقفيه "ماهر عبد الكريم" بالإضافة إلى الالتزام الأكاديمى الذى لا ينعزل تماماً ولا يبالغ فى الاندماج "عزمى شاکر - كامل رمزي - محمود درويش".

وتبدو الإشارة ضرورية إلى أن أساتذة الجامعة الذين يقدمهم نجيب محفوظ، باستثناء أستاذ الطب سرور عبد الباقي والدكتور ماهر عبد الكريم، يؤلفون كتباً يسهمون بها فى إثراء الحياة الثقافية فى مناحيها المختلفة .

ولعل أكثر ما يلفت النظر فى صورة أستاذ الجامعة كما يقدمها نجيب محفوظ، غياب الاهتمام بتفاصيل العمل الجامعى اليومى من حيث المحاضرات والأنشطة الطلابية، ذلك أن التركيز الأكبر ينصب على الملامح الإنسانية بون طبيعة العمل وخصوصيته.

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

المصادر والمراجع

أولا . المصادر

في "تمهيد" الدراسة أشرنا إلى بعض أعمال نجيب محفوظ مختصرة على النحو التالي:

- ◆ قصر الشوق = قصر
- ◆ السراب = السراب
- ◆ عصر الحب = عصر
- ◆ الباقي من الزمن ساعة = الباقي
- ◆ خان الخليلي = خان
- ◆ بداية ونهاية = بداية
- ◆ حضرة المحترم = حضرة
- ◆ القاهرة الجديدة = القاهرة
- ◆ ثرثرة فوق النيل = ثرثرة
- ◆ المرايا = المرايا
- ◆ الحب تحت المطر = الحب
- ◆ السكرية = السكرية
- ◆ الطريق = الطريق

أما في فصول الدراسة فقد اعتمدنا على رواية "المرايا" ط4، 1979.

ثانياً . المراجع

أ- الكتب

- أنور الجندي: عبد العزيز جاويش، الدار القومية للطباعة والنشر، سلسلة أعلام العرب، العدد44 ، القاهرة، 1965.
- بودلير "شارل": أزهار الشر، ترجمة محمد أمين حسونة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة آفاق الترجمة، العدد الثامن، القاهرة، 1996.

المصادر والمراجع

- رجاء النقاش: فى حب نجيب محفوظ، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1995.
- د. رفعت السعيد: تاريخ الحركة الشيوعية المصرية 1957-1965، شركة الأمل، القاهرة، ط1، 1986.
- عبد الرحمن صدقى: الشاعر الرقيم بودلير، دار المعارف، سلسلة أقرأ، العدد السابع، ط2، د.ت.
- فتحى رضوان: مشهورون منسيون، مؤسسة أخبار اليوم، كتاب اليوم، العدد 27، القاهرة، 1970.
- مصطفى بيومى: الرؤية الوفدية فى أدب نجيب محفوظ، طبعة محدودة، المنيا، مكتبة السلام، 1991.
- صورة الموظف فى روايات نجيب محفوظ، طبعة محدودة، المنيا، مكتبة السلام، 1990.
- معجم أعلام نجيب محفوظ.. دراسة تحليلية، دار الأحمدي، القاهرة ط2، 1998.

ب- الدوريات

- مجلة الأقلام، بغداد، تموز 1984.
- مجلة الهلال، القاهرة، فبراير 1970.

المحتويات

- مقدمة د. ماهر مصطفى كامل "رئيس جامعة المنيا" 5
- مقدمه د. محمد عاطف كشك "مدير مركز دراسات المستقبل" ... 7
- تمهيد 11
- الفصل الأول - إبراهيم عقل 29
- الفصل الثاني - زهير كامل 47
- الفصل الثالث - سرور عبد الباقي 61
- الفصل الرابع - عزمى شاکر 71
- الفصل الخامس - كامل رمزی 79
- الفصل السادس - ماهر عبد الكريم 87
- الفصل السابع - محمود درويش 103
- المصادر والمراجع 111

للمؤلف

أولاً - الروايات

- الصورة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة أصوات أدبية، 1995.
- لمحات من حياة المواطن م.ب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 1996.
- أحلام سرية، دار الأحمدي للطباعة والنشر، 1998.

ثانياً - النقد

- صورة الموظف في روايات نجيب محفوظ، مكتبة السلام، المنيا، 1990.
- الرؤية الوفدية في أدب نجيب محفوظ، على نفقة المؤلف، طبعة محدودة، المنيا، 1991.
- الفكاهة عند نجيب محفوظ، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، 1994.
- عصير الشخصية المصرية.. قراءة في رباعيات صلاح جاهين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1996.
- معجم أعلام نجيب محفوظ.. دراسة تحليلية، مطابع الأهرام، ط1، 1997، دار الأحمدي، ط2، 1998.
- معجم أعلام "شقة الحرية" لغازي القصيبي، مطابع الأهرام، 1997.

- محمد بن عبد الله " صلعم" فى عيون الأدب العربى، دار الهدى، 1998.
- جمال عبد الناصر فى عيون الأدب العربى، دار الهدى، 1998.
- القرآن الكريم فى أدب نجيب محفوظ، دار الأحمدي، 1999.
- معجم أسماء قصص يوسف الشارونى، مركز الحضارة العربية، 1999.

ثالثا - كتب للأطفال

- الحياة الجميلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.
- سيدة القرن العشرين، دار الأحمدي، 1999.

كتاب المستقبل

تهدف هذه السلسلة إلى :

- رفع مستوى الوعي بالقضايا والتحديات المستقبلية والنهوض بمستوى الحوار حولها لدى مختلف القوى الاجتماعية .
 - استثارة الاهتمام المجتمعي الجاد بالمستقبل وقضاياها .
 - الإسهام في تكوين مكتبة علمية لدراسات المستقبل من خلال إبداعات العلماء والمفكرين المصريين .
- إن هدف الدراسات المستقبلية ليس فقط مغرفة احتمالات واتجاهات التغير والاستعداد لها ، وإنما أيضاً التأثير فيها في الاتجاهات المطلوبة .

مركز دراسات المستقبل ،

Bibliotheca Alexandrina



0395331